

ثقة الثوار بأنفسهم .. عمق الثورة وبنيتها التحتية

عبدالغني مزوز

كنت معهم (٢)
شاهد على اعتقالات الإسلاميين بالجزائر

الصغير منير

الوجه الأنصع للمقاومة الشعبية في الثورة السورية

كرم الحفيان

الوظيفة الجهادية للفكر المقاصدي

د. وصفي عاشور أبو زيد

" ثقافة الطوارئ ".. لا تحفظ هوية أمة

وليد الهوريني

وغيرها من المقالات ....

محتويات العدد



كلمة حق

دورية ثقافية معرفية
نخبة من الكتاب والمفكرين

العدد العاشر ، مايو 2018

klmtuhaq

www.klmtuhaq.blog

المشرف العام
محمد إلهامي

مدير التحرير
معتز زاهر

الافتتاحية ..
في ضرورة تأمين القيادات والكفاءات المسلمة

محمد إلهامي

" قبل سنوات قليلة حذرت السلطات الأردنية الإخوان من إجراء الانتخابات الداخلية، وهددت بأن إجراءها يعني اتخاذ إجراءات ضد الجماعة. وقد حصل تردد وارتباك في الجماعة إزاء هذا التهديد، فحاولوا جس نبض السلطة وهل هي جادة، فأجروا انتخابات في منطقة ما، وكان للسلطة رد فعلها الجاد والقوي، فاضطر الإخوان إلى إلغاء إجراء الانتخابات الداخلية.

تبدو الصورة غريبة لأول وهلة، فالنظام الذي يعادي جماعة ما ينبغي أن يكون حريصا على إجراء هذه الانتخابات لتتغير القيادات التي دخل معها في احتكاك أو نزاع، فلربما جاء من هو ألين منهم أو هو أكثر "انفتاحا" و"اعتدالا"، فإن لم يكن هذا وجاء من هو مثلهم فعلى الأقل سيأتي من ليست له الخبرة الوافرة التي تكونت وترسخت عند القيادات القديمة، وهو ما يجعل التعامل معه أسهل.. هكذا ينبغي أن تفكر السلطة فيما يبدو لأول وهلة. لكن الذي حصل هو العكس !

لقد كانت السلطة أحرص من الجماعة نفسها على بقاء القيادات القديمة في مكانها! فهل يصعب توقع السبب؟! أبدا: السبب أن السلطة خبرت وعرفت تلك القيادات ومخارجها ومداخلها وطرائق التعامل معها والسيطرة عليها كذلك!.. ومن ثَمَّ فالسلطة أحرص على عدم المخاطرة بالتعامل مع الجديد من الجماعة نفسها !!

تلك القيادات الإسلامية التي بقيت في مكانها أدنى من نصف القرن وثلثه وربعه، تسافر وتروح وتغدو بين المؤتمرات والمنتديات واللقاءات، كأنها لا تمثل أي نوع من الخطر ولا المنافسة للأنظمة الحاكمة والنظام الدولي، بل النظام الدولي يفتح لهم عواصمه ليتخذوا فيها مقرات !

وقبل أيام صرَّح قيادي إخواني على صفحته بالفيس بوك بما كان معروفا بين الأوساط الإسلامية المصرية من أن إبراهيم منير -الذي هو في مكانه منذ أربعين عاما- هدد في لقاء مغلق بأنه سيبلغ المخابرات البريطانية في جلسته الشهرية معها عن الإخوان "المؤيدين للعنف"! وذلك لأنه صادق لا يكذب!! وهو التصريح الذي فاجأ الكثيرين بأن له لقاءات دورية مع المخابرات البريطانية.

حسنا .. فما الغرض من كل هذا الكلام الآن؟!

الغرض بسيط وواضح، إن الذي يمثل خطرا حقيقيا لا يُسمح له بالحياة.. هذا هو الدرس الذي ذكّرنا به اغتيال الشهيد الدكتور المهندس فادي البطش في ماليزيا، لقد كان وهو في الخامسة والثلاثين من عمره يمثل خطرا على إسرائيل لأنه يساهم في تطوير البنية العسكرية لحركة حماس. وهو ما أعاد إلى الذاكرة -المثقلة التي تنسى من كثرة الهموم- اغتيال الشهيد المهندس محمد الزواري في بيته بتونس لأنه من مهندسي طائرات حماس بدون طيار.. وكلاهما يذكر بطابور طويل من القيادات السياسية والأمنية والعسكرية والعلمية التي اغتيلت حول العالم.

بينما أولئك الذين تحرص السلطات وأجهزة المخابرات على بقائهم في أماكنهم ومناصبهم هم مصدر الأمان الحقيقي، هم أولئك الذين يقومون بدور لا تستطيع تلك الأجهزة أن تفعله ولو اجتهدت، إنهم يُمسكون بقرون الحركة الإسلامية ومفاصلها، الحركة الإسلامية التي إن ثارت وهاجت فلا يمكن توقع ماذا يمكن أن تفعل!



الشهيد الدكتور المهندس فادي البطش

تتبع المستهدفين بالاغتيال يرسم لنا ملامح السياسة العامة لأولئك الخطرين الذين يُسْتَهدفون..

١ يأتي على أول القائمة القادة الذين يستطيعون تحريك الأتباع نحو الوجهة الصحيحة، فأولئك قد اجتمع لهم علمُ وعمل، فبالعلم يحددون الوجهة والرؤية والطريق الصحيح، وبالعمل يحركون الأتباع الذين نجحوا في تكوينهم وتنظيمهم، وهنا يمكن أن نضرب أمثلة طويلة من عمر المختار والقسام وحسن البنا وأحمد ياسين وأسامة بن لادن وغيرهم من زعماء وقيادات حركات المقاومة.

٢ ويأتي بعدهم العلماء والمخترعون وأصحاب القفزات النوعية في مسارات المقاومة، طالما أن أولئك يعملون بالفعل في سياق المقاومة أو يحملون من الأفكار والتوجهات ما يجعلهم ممتنعين عن الذوبان في الحضارة الغربية وتجنيد مجهوداتهم في صالحها.. مثل هذا لا بد من التخلص منه، فذلك الذي يمثل الأنياب والمخالب التي تضرب بها حركة المقاومة، أولئك الذين يوفرون الأدوات والوسائل التي تتحول بها الأفكار النظرية المحلقة في الخيال والحائمة في الرؤوس إلى أسلحة على الأرض تقاتل في الحروب وتغير موازين القوى وخرائط الصراعات.



أما إن كان صاحب الفكر والعلم بلا جماعة ولا أتباع ولا وسائل فلا بأس بتركه حتى يموت كمدا أو يموت من الصراخ.. كذلك إن كانت الجماعة أو الحركة بلا أنياب ولا مخالب ولا وسائل فلا بأس بتركها تعمل في الإطار الذي يُحدد لها، بل قد توظف في خدمة السياسة الحاكمة وكبح انفلات الأتباع وتخديرهم بالنسخة المخففة من الدين.

وعلى الجانب الآخر طالما أن الأنياب والمخالب تقبل بتوظيفها واستعمالها ضمن المنظومة الحضارية الغربية فهي محل ترحيب، أما حيث استنكفت عن هذا وكانت لها طموحات أخرى، فمصيرها الاغتيال.

القاعدة أن يمتنع اجتماع العلم والعمل معا، العقل والمخلب معا، القدرة على التفكير والقدرة على التنفيذ معا..

ذكر تقرير بريطاني عن الشيخ رشيد رضا أنه "مسلم صعب ، متعصب، لا يتساهل، وتنطلق أفكاره من باعث رئيسي هو التوق لتحويل الإسلام إلى قوة سياسية في أوسع مجال ممكن. إن غطرسته الفكرية في تقديري يمكن أن تعزى بالدرجة الأولى إلى الاعتقاد بأن بريطانيا العظمى تخشى الإسلام... وعلى الرغم من دماثة خلقه وحسن سلوكه، فلا يسعني وصف موقفه إلا بأنه مشاكس... تسيطر عليه فكرة خيالية هى أن الإسلام كيان دولي مستقل ، وأن المسلمين يستطيعون أن يملوا على بريطانيا سياستها بلهجة تكاد تشبه لهجة الفاتحين، وأنه لا يستطيع أن يحمل نفسه على تقديم أي تنازل أو تبني أي أمل في صداقة فعلية أو ولاء من جانب المسلمين" [1].

عاش رشيد رضا بعد هذا التقرير عشرين عاما، ومات وهو في السبعين من عمره، وترك لنا المنار شاهدة على ما حمله صدره من علم ثرٍّ غزير واسع ومن لهيب وأحزان وحماسة لا تنتهي..

---

(١) نجدة فتحي صفوت، الجزيرة العربية في الوثائق البريطانية: نجد والحجاز، ط1 (بيروت: دار الساقي، ١٩٩٦ م)، ١/٥٠٠، ٥٠١.

والتقرير كتبه مارك سايكس إلى مدير العمليات العسكرية بوزارة الحرب البريطانية بتاريخ ١٤ يوليو ١٩١٥ م.

وذكرت برقية للسفارة البريطانية عن الشيخ حسن البنا: "يمكن لجماعة الإخوان أن تنهار إلى الأبد، إذا أزيح حسن البنا عن قيادتها لأي سبب، مع غياب أي خليفة له نفس القدر من الشخصية القيادية والذكاء اللذين يتمتع بهما حسن البنا"(٢) .



الشيخ حسن البنا

عاش البنا بعد هذا التقرير أياما ثم اغتيل وهو في الثالثة والأربعين من عمره.. لم يكن الفارق بين البنا ورشيد رضا إلا أن البنا له أتباع يملك تحريكهم، اجتمع له التفكير والتنفيذ! بينما كان علم رشيد رضا وحرقته وحماسته بلا مخالب تحيلها إلى واقع يغير موازين الأوضاع.

في حالات أخرى يكون الحبس الطويل أفضل من الاغتيال، هذا إن أمكن.. فالاغتيال يثمر أسطورة بطولة وشهادة، بينما الحبس الطويل يُغيِّب ذكرى الزعيم وقد يكسره، وإن لم يكسره كسر صورته في النفوس والخيال.. وهذا اغتيال مضاعف، ونجاح أكبر.. لكن الاختيار بين الحبس والاغتيال تحوطه ظروف موضوعية وتفصيلية يقدِّرها صاحب القرار.

لا يزال على جدول المهمومين بأحوال الأمة عمل كثير طويل، من صلب هذا العمل: تأمين القيادات والكفاءات والحفاظ عليها. ولقد كان النبي في الحراسة المسلحة منذ لحظته الأولى في المدينة حتى نزل قوله تعالى (والله يعصمك من الناس) فصرف الحراسة.

(٢) محسن محمد، من قتل حسن البنا، ط1 (القاهرة: دار الشروق، ١٩٨٧م)، ص ٤٧٩.

الوجه الأنصع للمقاومة الشعبية في الثورة السورية

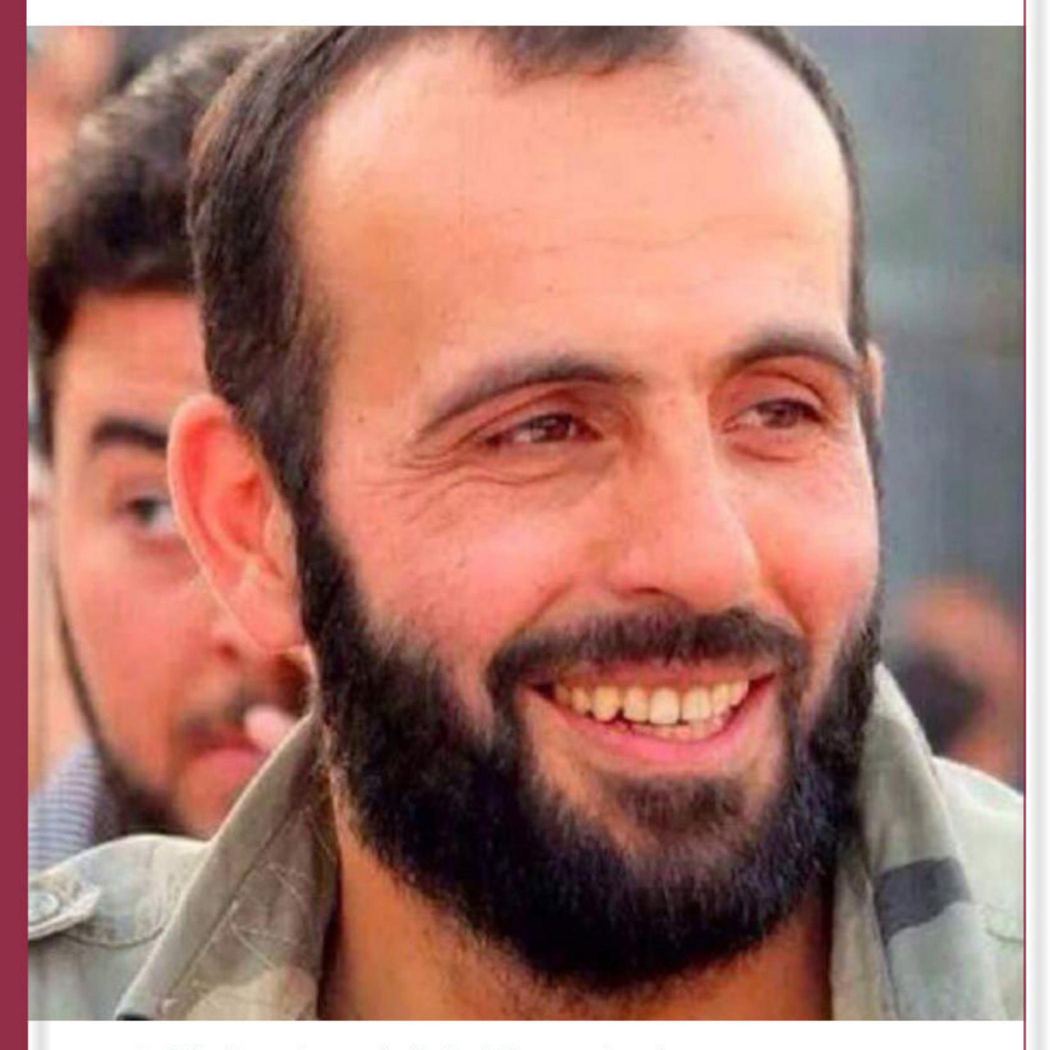
حجّي مارع

كرم الحفيان



مع كثرة القادة في الثورة السورية ومع تعدد الجماعات والإيديولوجيات وأنصارها، ومع اختلاف المراقبين المختصين في تقييم أداء حركات وتنظيمات ومؤسسات الثورة المتنوعة على كل الأصعدة العسكرية والدعوية والإغاثية والطبية والإدارية وغيرها، إلا أن التيار العام للثورة أجمع على حب وتقدير واستحسان وتفرُّد تجربة

وشخصية "حجي مارع" [1] : عبد القادر الصالح (قائد لواء التوحيد في حلب) ومحرر أغلب المدينة ومساحات شاسعة من الريف، الذي اعتدّه الكثيرون النموذج الأكثر إشراقاً والأنجع تأثيراً فيما يخص المقاومة الشعبية المسلّحة لنظام الأسد وحلفائه.



حجّي مارع : عبد القادر الصالح (محرر حلب رمضان ٢٠١٢ م)

(١) انظر: عبد القادر الصالح: "حجي مارع" يأسر قلوب الثوار! ، أورينت نيوز ، ٢٤ يونيو ٢٠١٣ م.

ويُرجع مراقبون هذا التميّز لاجتماع عشرةٍ كاملة فيه:

١ الوجود الميداني الكثيف بين الناس، مع ابتسامةٍ دائمة مرسومة على صفحة وجهه[٢] ، مهما كانت الظروف، وبساطةٍ عفوية (غالباً) وتبسطٍ (أحياناً) مع الثوار المجاهدين ومع المدنيين على حدٍ سواء، مما جعل لكلماته مفعول السحر، ليس فقط على كثير من قادة وأعضاء لوائه والجماعات الأخرى المقاتلة على الجبهات، وإنما على شرائح واسعة من المنخرطين بالعمل الثورى والمهتمين بمجرى الأحداث بسورية عبر مقاطعه المصورة وكلماته الإيمانية ومقابلاته التليفزيونية.

٢ التركيز الدائم المُلح على إصلاح (الجانب الجوّاني)[٣] من شخصية المجاهدين الثائرين، فكان في أغلب الأحيان (بعكس أغلب القادة والجماعات) يحرص على حصر تعليق قلوب مقاتليه وجنوده بالله عزوجل وبالآخرة: الغاية، أما الاجتهادات الحزبية النسبية (الطرق الموصلة إلى الغاية) الخاصة بكل تيار وجماعة وحركة فكان يعدّها مسألة ثانوية طالما أن الثائر ممسكُ بسلاحه ولا يتخلى عنه، ولذلك كانت قضيته المركزية: الارتقاء بروح المجاهدين على الأرض (قبل ارتقائهم إلى السماء) عبر تجويد عباداتهم وتنمية أخلاقهم وضبط تصرفاتهم، عوضاً عن التركيز على برمجة عقولهم (الجانب البرّاني) على فكر معين أو مدرسة محددة بحيث يتضخم هذا الجانب عند البعض ليعتنقه كحق مطلق لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

---

(٢) انظر: أربع سنوات على رحيل أمير الشهداء عبد القادر الصالح "حجي مارع"، الجبهة الشامية على اليوتيوب، ٢٠ نوفمبر ٢٠١٧م.

(٣) **للمزيد:**

حجي مارع يوجه نصائح للمجاهدين على إحدي الجبهات، يوتيوب، ٢٢ سبتمبر ٢٠١٤م.

الشهيد البطل عبد القادر الصالح قائد لواء التوحيد يوجه المجاهدين على الجبهات، مقطع مصور، نوفمبر ٢٠١٣م.

أخلاق المجاهدين الإسلامية تجعل النصارى يدعون لهم في الكنائس، كلمة حجي مارع ضمن اجتماع في منطقة الباب بريف حلب ٢٠١٣م.

٣ الدعوة بلسان الحال والمقال، فغالباً لم يكن يخالف فعله قوله بل كان يسبقه، فعندما يوصي غيره بالإنفاق في سبيل الله نصرة للثورة وللمستضعفين، يكون قبلها قد أنفق كل ما يملك[٤] من مال وأراضي لتسليح الثوار (١٥ مليون ليرة سورية= ٣٠٠,٠٠٠ $ تقريباً)، وإذا دعا الشباب للتوكل والاعتماد على الله سبحانه لا على السلاح (دون إغفال الأسباب)، يكون قبلها قد قاد معارك كبرى كثيرة بأسلحة بسيطة كمعارك تحرير ريف حلب الشمالي (مع وجود شح بالقذائف المضادة للدبابات) ومعركة تحرير مدينة حلب (حُرر أغلبها برمضان ٢٠١٢ م) بـ ٧٠٠٠ طلقة بندقية فقط[٥]!



٤ الأسلوب الدعوي النابع من داخله ومن جذور بلده منذ كان تاجراً للمواد والحبوب الغذائية (قبل الثورة)، والمنسجم مع مفردات ومصطلحات الشارع السوري[٦] دون تكلّف أو تصنّع أو استيراد أساليب دعوية قد تكون غير مناسبة ومستساغة من قبل المجتمع السوري. فدعوته ما كانت لتلامس شغاف القلوب ما لم تراعِ ثقافة وخصوصية وعادات وتقاليد الشعب، هذا الأمر يبدو ظاهراً جلياً ليس فقط لكل من تعامل مع حجي مارع أو رافقه فترةً من الزمان، وإنما لجميع من شاهد مقاطعه المرئية الكثيرة على الجبهات مع المقاتلين أو في الشوارع مع سائر المدنيين أثناء إلقائه تذكرة أو استماعه للشكاوى والصعوبات التي تواجه الأهالي، فلا شك أن لكل شعب شخصية مستقلة ولكل شخصية مفاتيح معينة.

(٤) انظر: أبو أيمن الحموي(أحد أبرز قادة ومؤسسي حركة أحرار الشام). نحو منهج رشيد٢ . الدقيقة ٢١ . ٢٠١٤ م .

(٥) انظر: الشهيد عبد القادر الصالح قبيل استشهاده . ١٠ ديسمبر ٢٠١٦ م.

(٦) **للمزيد:**

لقاء يعرض لأول مرة لعبد القادر الصالح: أمي هي سبب محبة الناس لي .الغد العربي. ٢٣ نوفمبر ٢٠١٣ م.

٥ البعد عن جميع المناوشات المنهجية والحزازات الحزبية الدعوية المنتشرة والمستفحلة بين غالبية المدارس والجماعات والحركات الإسلامية مؤخراً، فجُل جهوده كانت منصبة على تحبيب الله ودينه وشرعه لخلقه، وتحفيز عباد الله على طاعته وعدم عصيانه أثناء جهادهم لعدوهم كي يرضى عنهم وينزّل عليهم نصره، وربما من الأشياء التي عصمت حجي مارع من الانخراط في هذا الاحتراب الفكري والتنافر المنهجي، هو أنه من نوادر القادة (خاصة الإسلاميين) الذين لم يُسجنوا قبل الثورة في سجن "صيدنايا"، ذلك السجن الذي شهد صراعاً خارجياً دموياً مقاوماً لتسلط إدارة السجن وإهانتها للمقدسات الإسلامية، وآخر داخلي فكري حاد بين مختلف الأطياف الإسلامية المعتقلة معا [٧] .

٦ الاعتراف العلني بأخطاء جماعته وسعيه الدؤوب لتصحيح المسار ومحاسبة المخطئين على الملأ وفصلهم إن تطلّب الأمر[٨]، فلم يكن من الذين يؤثرون سمعة فصيلهم على حقوق الآخرين بل لطالما أوقف المسيئين عند حدودهم وحاسبهم على رؤوس الأشهاد غير آبهٍ بما سيقوله منافسوه وخصومه وبما قد يستغلونه في تنفير الشباب عن الالتحاق بجماعة حجّي مارع (لواء التوحيد)، فمسألة الاستزادة من الأعداد بغرض الهيمنة لم تكن من برنامجه وخططه [٩] ، حتى إنه فصل مجموعات كاملة كانت تتبع للوائه وعدّل هيكلة الجماعة ووضع شروطاً أخلاقية معينة لمن أراد الانضمام لها عقب تحريره لكثير من المناطق واستقرار الأوضاع فيها [١٠] .

٧ الحرص على مشاركة جميع الفصائل والفعاليات والهيئات الكبيرة المؤثرة في إدارة ما حرره هو وحده، طالما أنه غير قادر على القيام بهذه المهمة بمفرده بصورة جيدة، وذلك لعدم وجود كوادر كافية على الأصعدة الخدمية المختلفة وأيضًا القضائية والإدارية والطبية والتعليمية وغيرها. فمدينة حلب مثلاً، لم يشارك في تحريرها إلا لواء التوحيد[١١] ، وربما من حقه من الناحية القضائية أن يديرها بمفرده، ولكن إن لم تتم الكفاية ووقع العجز في النوعية، فلا شك أن من يبغي وجه الله ويقدم المصلحة العامة للمسلمين يسارع في التعاون والتنسيق مع إخوانه إن تعذر الانصهار الكامل والتوحد.

---

(٧) **للمزيد:** كرم محمود الشيخ علي، صيدنايا والداعم: ثنائية الفشل الثوري ، ١٢ ديسمبر ٢٠١٦ م.

(٨) انظر : لقاء اليوم -عبد القادر الصالح_لواء التوحيد، قناة الجزيرة ، الدقيقة ١٣ ، ١٦ يونيو ٢٠١٣ م.

(٩) **للمزيد:** وصايا حجي مارع لقادة الكتائب في الفوج الأول بلواء التوحيد ، اجتماع بمنطقة الباب بريف حلب ٢٠١٣ م.

(١٠) **للمزيد:** لقاء اليوم-عبد القادر الصالح_لواء التوحيد، قناة الجزيرة ، من الدقيقة ٨ إلي ١٢ .

(١١) **للمزيد:** أبو أيمن الحموي، نحو منهج رشيد٢ ، الدقيقة ٢٣ .

٨ احترام التخصص ومعرفة (قدر النفس) مع اليقظة المتمثلة بـ :

السعي لمنع تسلق المشبوهين لسدة الحكم بعد التحرير ، فرغم أنه داعية معروف في مجتمعه، وتاجر مشهور بصدقه وأمانته، ومن أوائل من انخرط وقاد الثورة سلمياً وعسكرياً، وذو شعبية جارفة لا تخطئها العين، إلا أن ذلك كلّه لم يدفعه للافتئات على مجالات خارج تخصصه، ففي الناحية العسكرية كان يُنزل الضباط العسكريين المنشقين الشرفاء منزلتهم[١٢]، وقد تم تعيين العقيد يوسف الجادر (أبو الفرات)[١٣] رئيساً لأركان لواء التوحيد، وفي الناحية الشرعية القضائية أوكل وسلّم الأمر للجنة من القضاة وطلاب العلم المختصين وعمل على تمكينهم من مزاولة مهامهم بشكل مستقل وناجح[١٤]، وأخيراً وليس آخراً أكّد على عدم رغبته في تولي أي منصب سياسي مع تشديده على المساهمة في استلام الثقات الشرفاء لدفة الحكم مستقبلاً [١٥] .



العقيد يوسف الجادر

(١٢) انظر : بطل الشمال الشهيد عبد القادر الصالح ، قناة شدا الحرية : وثائقي، الدقيقة ١٨ ، أغسطس ٢٠١٤ م.

(١٣) انظر : أحد أبرز الضباط المنشقين وصاحب شعبية واسعة وإنجازات عسكرية ثورية كبيرة أبرزها تحرير مدرسة المشاة بحلب.

(١٤) انظر : لقاء اليوم-عبد القادر الصالح_لواء التوحيد، قناة الجزيرة ، الدقيقة ١٢ .

(١٥) انظر : المصدر السابق، من الدقيقة ١٩ إلى الدقيقة ١٢.

(١٦) **للمزيد:** هادي العبدالله ينعي عبد القادر الصالح ويروي قصة ليالي الخوف والجوع، الغد العربي، ٢٠ نوفمبر ٢٠١٣ م.

٩ السلامة من مَرَضَيّ: المناطقية والعولمة، وهذان المرضان من أعظم ما ابتليت به الثورة السورية، أما الأول: المناطقية (الاهتمام فقط بمدينتك أو منطقتك وتجاهل ما سواها) فقد كان لسياسة النظام السوري خلال العقود السابقة الدور الأبرز في ترسيخها داخل النفوس عبر تهميش بعض المناطق وتأليب بعض المدن على أخرى، وقد عُصم منه حجي مارع ويشهد على ذلك قيادته بنفسه لحملة عسكرية نصرة للقصير المُحاصرة (بريف حمص)[١٦] من حزب الله اللبناني والبعيدة عنه مئات الكيلومترات، وأما الثاني: العولمة (استجلاب النظام العالمي لقتاله واستنزافه وعدم أولوية تحرير الأرض) فقد سادت هذه النظرية وهيمنت على عقلية التنظيمات المرتبطة بالقاعدة، وكان حجي مارع من أكبر الرافضين والمعارضين لها[١٧]، إذ تحتل قضية تحرير الأرض قلبه وعقله.



حجي مارع أثناء معركة القصير: أبريل ٢٠١٣

١٠ الهدف الغائي الأصيل المحدد: إقامة دولة إسلامية دستورية مؤسسية معتدلة ومستقلة لا يحكمها عسكر ويختار الشعب من يريد عبر صناديق الاقتراع، هذا الأمر دأب على ترديده والمناداة به بكل وضوح وصراحة خلال ندواته الداخلية ومقابلاته التلفزيونية فمسألة هوية الدولة وشكلها ومصادر التشريع وسن القوانين فيها حازت على مساحة مركزية في خريطة المشروع الثوري الإصلاحي لحجي مارع في سورية[١٨]، غير أنه كان يدرك أن إمكانية الوصول لهذا الهدف تتطلب التمهيد والتحضير الجاد خلال سنوات الثورة عبر رفع المعدلات الإيمانية والفكرية والسياسية للمقاتلين وللشعب بشكل عام حتى يتشارك ويتعاضد الجميع في تحقيق هذا الحلم الممنوع والمُحارَب من أعداء الأمة.

---

(١٦) **للمزيد:** هادي العبدالله ينعي عبد القادر الصالح ويروي قصة ليالي الخوف والجوع، الغد العربي، ٢٠ نوفمبر ٢٠١٣ م.

(١٧) انظر: لقاء اليوم-عبد القادر الصالح..لواء التوحيد، الدقيقة ٢٣.

(١٨) انظر: المصدر السابق، الدقيقة ١٢.

الخلاصة

رغم أن تجربة حجّي مارع لم تدم إلا سنتين فقط (نوفمبر ٢٠١١م - نوفمبر ٢٠١٣م)، ومع أنه لم يكن عالماً أو مفكراً أو مثقفاً كبيراً، ولم تكلّل جهودُه وجهود غيره بالتحرير الكامل للبلاد بل ولم تستمر جماعته كقوة كبيرة ذات ثقل وتأثير في مجريات الأحداث كما كانت قبل استشهاده، إلا أنه ترك قصةً نموذجيةً ملهمةً لكل القادة الحاليين والمستقبليين للمقاومة والثورات الشعبية، كانت أهم فصولها الصدق مع الله والنفس والصفاء مع الشعب والأمة، والأمانة في بذل المال والدم والنصح، والتفنن في زراعة الأمل وتجديده في قلوب المستضعفين الثائرين السائرين على طريق تحرر أمتهم واسترداد مجدها السليب [١٩] .



(١٩) انظر: قائد لواء التوحيد على جبهتي المطار واللواء ٨٠، آخر ظهور لحجي مارع على الجبهات قبل أيام قليلة من استشهاده، ١٢ نوفمبر ٢٠١٣م.



ثقة الثوار بأنفسهم .. عمق الثورة وبنيتها التحتية

عبدالغني مزوز

من بين الأهداف التي تسعى إليها دعاية الثورة المضادة وإعلامها المضلل بكل إمكانياته ووسائله خَلق شعور "باللامعنى" و"اللاجدوى" من الثورة وقُواها ومنجزاتها داخل الصف الثوري نفسِه وحواضنه الشعبية، شعور يتغذى من واقع اليأس والإحباط الناجم عن استطالة أمد الثورة دون أن تحقق أهدافها، وعن أخطاء الثوار وصراعاتهم البينية، حتى أصبحت ظاهرة العودة إلى معسكر الأسد في سوريا مثلا عبر مشاريع الهدن والمصالحات المزعومة متفشية في مناطق كثيرة كانت بالأمس القريب تزف عشرات الشهداء يوميًّا في سبيل التحرُّر من النظام الطائفي البغيض، وحتى أصبح ترشح سيف الإسلام القذافي للانتخابات الرئاسية في ليبيا أمـرًا قابلًا للنقاش والتداول في مؤسسات الثورة وليس مؤشرًا على الخيانة والهزيمة.

متابعة التعليقات والنقاشات التي ينخرط فيها من يُفترض أنهم صفوة الثوار ورموزُهم وقادتهم وأهل الرأي فيهم على مواقع التواصل الاجتماعي المختلفة تُبين قدر اليأس والهزيمة التي تسربت إلى النفوس، وثقة الثوار الهشة في أنفسهم وفي مشروع التحرير والاستقلال الذي يحملونه ويدافعون عنه.

التعبير عن هذا اليأس والإحباط يأخذ صيغا متعددة أكثرها حضورا وترديدا تلك التي تدور حول مزاعم "فشل الإسلاميين وعدم جدارتهم بالثورة" و"أن الجهاديين خربوا ثورات الشعوب" و"يجب على الإسلاميين ترك الشعوب وثوراتها لأنهم عبء عليها" و"أن الإسلاميين غير جديرين بالحكم وإدارة شؤون الناس" وتلك التي "تهتم بالمشاركة السياسية ونبذ الإقصاء" وتلك التي تسرد أخطاء الثوار هنا وهناك.. إلى غيرها من الصيغ والتعابير التي يخلص منها صاحبها وبألفاظ حذرة ومهذبة إلى أن الثورة باتت في حكم المنتهية وأنه لا بد من التعاطي بمرونة مع الخيارات الأخرى (حقنا للدماء) و(إعلاء للمصلحة العليا للوطن)، وأن السبب في كل ما يجري هم الإسلاميون وسعيُهم المفرط إلى التغلب والسلطة دون إدراكهم لعواقب ذلك.

" هذا الخطاب النكوصي والانهزامي يفتقد للموضوعية والوجاهة والمصداقية أيضا، لأنه يعبر عن أزمة نفسية صِرف أكثر مما يعبر عن واقع مشهود ومعطيات ملموسة، خطاب رفدته دعاية الثورة المضادة المضللة، وعُقدةُ الذنَب التي خلّفَتْها مرحلة صعود تنظيم الدولة وما ارتكبه من فظاعات باسم الإسلام والشريعة، وواقع الانقسام والصراع بين مكونات الثورة في أكثر من قطر وبلد. "



وفي واقع الحال أن النظام العسكري والطائفي العربي هو الذي أجرم بحق الشعوب والأوطان على مدى أكثر من نصف قرن، وجاءت الثورة المضادة لتعيد ترميمه وتسييده مجددا على جماجم مئات الآلاف من الناس، والثوار وفي طليعتهم مكونات الصحوة الإسلامية مهما بلغت أخطاؤهم المفترضة فلن تكون مبررا للتشكيك أو الارتداد عن مطلب التحرر والاستقلال وسيادة الشرع.

خذ يوما واحدا من أيام الثورة المضادة وليكن يوم رابعة وقارنه بكل ما يُنسب للصحوة الإسلامية من "جرائم" منذ نشأتها، فستجد حتما أن لا مجال للمقارنة.

والقرآن الكريم كان صريحا مع الذين يلعبون على وتر أخطاء الدعوة وأخطاء الحركة الإسلامية الأولى، حينما شنّت دعاية قريش حملة على النبي -صلى الله عليه وسلم- وأصحابه من أفراد سرية عبد الله بن جحش الذين قَتلوا أحد المشركين في الشهر الحرم حيث أشاعوا بين الناس أن "محمدا يزعم أنه يتّبع طاعة الله وهو أول من استحل الشهر الحرام وقتل صاحبنا في رجب" ورد عليهم المسلمون "إنما قتلناه في آخر ليلة من جمادى"..

وعندما نزل القرآن تجاوز هذا الجدل على مستوى الجزئيات والتفاصيل الصغيرة ونظر إلى القضية في كليتها وشموليتها، وعَدَّ القتل في الشهر الحرام خطأ وكبيرة لكنها لا تُقارن بجرائم المشركين وخطاياهم، وأولها جريمة الكفر والصد عن منهج الله والكيد لأوليائه "يسألونك عن الشهر الحرام قتالٍ فيه قل قتالُ فيه كبير وصد عن سبيل الله وكفر به والمسجدِ الحرام وإخراجُ أهله منه أكبرُ عند الله والفتنة أكبر من القتل" ثم حذر القرآن المسلمين في السياق نفسه من الخضوع لخطاب المشركين الذي يدّعي كذبا صيانة الدماء واحترام الشعائر والأشهر الحرم، وأكّد على نزعة القتل والاستئصال المتأصلة في نفوسهم ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا "ولايزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا ومن يرتدد منكم عن دينه فيمت وهو كافر فأولئك حبطت أعمالهم في الدنيا والآخرة وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون".

يجب استدعاء هذه المقاربة القرآنية المنصفة عند التعاطي مع ما يمكن اعتداده "أخطاءً للثوار" في سياق مدافعتهم المشروعة للظلم والطغيان، وألا تكون هذه الأخطاء سببا في انهيار المعنويات وفقدان الثقة في النفس، والشك في المشروع التحرُّري الحضاري الذي قدّم الشعب السوري وحده مئات الآلاف من الشهداء ثمنا له، وقدّمت الشعوب العربية الأخرى الآلاف أيضا. لا ينبغي مطلقا أن يُستدرج الثوار إلى مربع الإدانة الضمنية أو المباشرة للفعل الثوري مهما تلبس به هذا الفعل من أخطاء ما دام مسترشِدا ببوصلة القرآن وحقوق الإنسان المشروعة في العيش بحرية وكرامة وعدالة.

تعمد دعاية الثورة المضادة إلى تسليط الأضـواء على إخفاقات الثورة وأخطائها، وترديدها في وسائل الاتصال الجماهيرية المختلفة ومنصات الإعلام المتاحة، راصدة لذلك أموالا وموارد طائلة، ساعية إلى ربط أي أزمة تنزل على الناس بالثورة والثوار، مُشيعة بذلك جوًّا من الإحباط وخيبة الأمل يتسرب شيء منه إلى بعض أعيان الثورة وقادتها، في حين أن مصائب وخطايا الثورة المضادة تُهمَّش وتُتجاوز كأنها لم تحصل، وكمثال على ذلك ما يتعلق بالنزاع بين مكونات وفصائل الثورة والذي اعتدَّه البعض دليلا على عدم جدارة تلك الفصائل بتمثيل الثورة واستحقاقها الهزيمة، لكن لم يتحدث أحد في المقابل عن الحرب التي نشبت بين فصائل الثورة المضادة في مدينة صبراتة الليبية بسبب الخلاف على منافذ تهريب البشر والتي كلفت مئات القتلى والجرحى في أسبوعين فقط. كما ضجت وسائل الإعلام بحوادث معزولة عن عمليات إعدام ميداني جرى تصويرها من قِبَلِ الثوار هنا وهناك، دون أن تلقى الاهتمام نفسَه تلك الإعداماتُ الممنهجة التي ينفذها مجرم الحرب المدخلي محمود الورفلي في ليبيا، وهي إعدامات فاقت في بشاعتها تلك التي نفذها تنظيم الدولة.

دور الإعلام الثوري وقادة الثورة ونخبها أن يعززوا الثقة في نفوس الشعوب ويرفعوا معنويات الفصائل والحركات الثورية، إنها حرب نفسية تستلزم وعيا عميقا بأبعاد الصراع وامتداداته وتشعباته، فالانكسار والانحسار لا يبدأ بخسارة معقل أو حاجز أو مدينة.. بل يبدأ بلفحة شعور تخامر النفس عن "جدوى" هذه الثورة ثم يليها تصدع في الوعي ثم نكسات في الميدان وأرض الواقع. فعمق الثورة وبنيتها التحتية هي رصيد الثائر من الوعي وإيمانه الراسخ بعدالة قضيته وثقته المطلقة بوعد الله الذي لا يخيب (ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين)، فالإحساس بالاستعلاء والاقتدار الذاتي في لحظات الصراع مع قوى الظلم والطغيان لا ينبغي أن تتلبس به مشاعر الوهن واليأس والحزن مهما اشتد الكرب وعم الخطب.

الثورة فعل إنساني غير معصوم من الأخطاء، وعندما تقع الأخطاء في سياقات الثورة فالواجب يقتضي تجاوزها والإقلاع عنها وتطويق تداعياتها دون أن يُفضي الحديث عنها إلى مسائلة الثورة نفسها أو الشك في وجاهتها وشرعيتها، فالنبي -صلى الله عليه وسلم- تبرأ من خطأٍ ارتكبه خالد بن الوليد ولم يتبرأ من حركة الفتوح ولا من خالد نفسه بل أقره في منصبه ومسؤولياته قائدًا للمسلمين وسيفًا من سيوف الله المسلولة، نعم، سيف من سيوف الله في حضرة الوحي اجترح خطأ واقترف سيئة، فما بالك بمن هو دونه.



من المؤسف فعلا أن تقرأ لكاتب سبعيني أفنى عمره كله في التنظير لمعركة التغيير والتأصيل لقضايا الحركة الإسلامية، وبعد الانقلابات وظهور الثورات المضادة كتب أن الحل لا يمكن أن يكون إسلاميا محضا وإنما إسلاميا وعلمانيا في آن، وأن الإسلاميين ما كان عيلهم أن يصلوا إلى سُدة الحكم والسلطة أبدا. هكذا تُسفر الهزيمة النفسية عن نفسها في عباءة وعظ سياسي مكرور وحكمة متكلفة.

من بين الأفكار التي ستساعدنا في تعزيز المناعة النفسية في مواجهة عوامل الوهن واليأس والإحباط هي إعادة تشييد توقعاتنا بشأن الثورة والحل الإسلامي المنشود وتجريدها من النزعات المثالية والملائكية. لا توجد ثورة للياسمين ولا سلمية تتحدى الرصاص، ولا حل إسلامي يعاند قوانين التاريخ وسنن الله في كونه، يغشى البلاد كنسيم بارد فيُطهِّرها من رواسب التخلف والجاهلية ويملؤها حضارة وعمرانا. بل هو صراع ضارٍ ومعركة قد تمتد لأجيال وحل إسلامي محفوف بالأخطاء ومُترَع بالخيبات، هكذا أراده الله أن يكون. وفي كل لحظة من لحظات هذه المسيرة المضنية يكتب الله للسائرين في صحائفهم أعمالا صالحة سواء بلغوا الغاية أو قضوا وهم يحاولون (ذلك بأنهم لا يصيبهم ظمأ ولا نصب ولا مخمصة في سبيل الله ولا يطئون موطئا يغيظ الكفار ولا ينالون من عدو نيلا إلا كتب لهم به عمل صالح).

ثغر شاغر

م. أحمد مولانا



أثناء قراءتي لكتاب (فن التجسس) لهنري كرامبتون، مدير العمليات السابق بمركز مكافحة الإرهاب التابع لوكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية، لفت انتباهي حديثه عن أخذه إجازة من عمله بعد إشرافه على عمليات الوكالة بأفغانستان عام ٢٠٠١ ، من أجل الحصول على منحة بكلية بول نيتزه للدراسات الدولية المتقدمة بجامعة جون هوبكنز، وقد درس خلال المنحة مقررات في الفكر السياسي والاستراتيجية العسكرية والتاريخ والسياسة الخارجية والإرهاب والفلسفة، كما درس برنامجا بعنوان (فن الاستخبارات وحرفتها). وأكد هنري أنه خلال هذا البرنامج الدراسي توسعت مداركه كثيرا رغم خبرته العملية الطويلة في مجال الاستخبارات.

عقْب الفراغ من قراءة الكتاب المذكور بدأتُ في البحث عن تلك المناهج الأمنية والاستخبارية التي تُدرَّس في الجامعات الأمريكية. فوجدت على سبيل المثال برنامجا يُدرَّس في جامعة بوسطن بعنوان (مشاكل الاستخبارات الاستراتيجية) يَتدرّب خلاله الطلبة على إعداد اطلاع استخباري يومي افتراضي يُقدَّم للرئيس الأميركي بخصوص أحد المواضيع الراهنة، وكتابة تقديرات استخبارية، كما يدرسون خلاله أصول التحليل الاستخباراتي وعوائقَه، وبنية الأجهزة الاستخبارية الأمريكية ومشاكلها، ونظريّات الاستخبارات، والمشاكل التي تُعيق جمع المعلومات وتحليلها، وإفادات المصادر وتقييمها، ومكافحة التجسس والتخريب والإرهاب، واستخدامات العمل الخفي والتجاوزات فيه، وعلاقة الاستخبارات بالأمن القومي، والأخطاء والثغرات الموجودة في الأمن الأميركي قبل أحداث سبتمبر. والمشاكل التي تعتري منظومة إدارة الأجهزة الاستخبارية من قبيل التسييس وتجاوز السُّلَّم الوظيفي، والتخطيط والميزانية والبرامج، والتعامل مع وسائل الإعلام، فضلا عن كيفية ضبط أداء أجهزة الاستخبارات كي لا تعمل خارج القانون، والتعرف على أجهزة الاستخبارات الأجنبية والجريمة المُنظّمة والتجسس الصناعي.

كما وجدت كتابا أكاديميا ضخما صادرا عن جامعة أكسفورد البريطانية بعنوان (دليل استخبارات الأمن الوطني) يتناول (نظريات الاستخبارات، مصادر وأساليب دراسة الاستخبارات، تقييم كفاءة الاستخبارات، الاستخبارات وتطبيق القانون، أداء أجهزة الاستخبارات الأمريكية والبريطانية أثناء الحرب العالمية الثانية والحرب الباردة، عملية جمع الاستخبارات من المصادر العلنية والبشرية، التحليل الاستخباراتي في بيئة غير مستقرة، العلاقة بين صُنّاع السياسة والاستخبارات، دراسة أجهزة الاستخبارات الأجنبية في روسيا وإسرائيل وأستراليا).ولم تقتصر الإصدارات الأكاديمية والمقررات الدراسية على عدد محدود من الجامعات فقد (كشف مسحُ أُجري مؤخرا أن هناك حوالي ٨٤٠ مقرر لدراسة الاستخبارات في الولايات المتحدة الأمريكية، موزّعين على أكثر من ١٠٠ مؤسسة تعليمية مدنية، بينما أوضح مسح آخر أُجري في عام ٢٠٠٣ ، أن هناك ١٤ جامعة بريطانية تُدرِّس مقررات عن الاستخبارات، كما توجد برامج تعليمية مماثلة في كل من أسبانيا وفرنسا) [1] .

(١) شادي عبدالوهاب منصور- دراسة الاستخبارات: الحقل الجديد في الدراسات الأمنية الحديثة، مركز المستقبل للأبحاث والدراسات المتقدمة- سلسلة أوراق أكاديمية - العدد الثاني - فبراير ٢٠١٨ .

وبالتوازي مع الاهتمام بالعلوم الأمنية، توجد صحوة أخرى غربية في دراسة العلوم العسكرية ونشرها، حتى أن الجيش الأميركي نشر عام ٢٠٠٧ أكثر من ٧٤٠ دليل عسكري في مجالات متنوعة بدءا من العمليات النفسية أثناء الحروب ومكافحة التمرد وصولا إلى إصدارات تتناول كيفية تشغيل وصيانة أسلحة معينة، واستمر الجيش الأميركي في نشر تلك النوعية من الإصدارات بشكل دوري وصولا إلى العام الحالي ٢٠١٨ . وللأسف لم يُترجم من هذه الإصدارات سوى دليل الجيش الأميركي للسلامة والصحة المهنية، وقد تُرجِم من قبل الجيش الأميركي نفسه من أجل شرح الاشتراطات الأمريكية للمتعاقدين والمقاولين العرب أثناء فترة احتلال العراق.



احتلال العراق

أمّا على الجانب الآخر من العالم الإسلامي، فنجد أن العناية بتلك العلوم تكاد تكون منعدمة خارج أُطر الجيوش النظامية التي تحتكر لنفسها المعرفة، أما في صفوف الحركات الإسلامية خصوصا فيوجد فقر مدقِع في العناية بتلك الجوانب، حتى أنه لا يكاد يجد المرء مركزا بحثيا مختصا بالدراسات الأمنية والعسكرية، أو حتى وحدة بحثية تُعنى بذلك ضمن المراكز الموجودة.

ونظرا لاتساع الرتْق، سعيتُ مع بعض الأصدقاء لتدشين مشروع لترجمة عدد من الإصدارات المرجعية الغربية المُتعلّقة بكيفية قراءة الواقع أمنيا، وتقييمه وصياغة السياسات والاستراتيجيات المتعلقة به، وبفضل الله نُشر أولى ثمرات هذا المشروع بعنوان (دليل الحكومة الأمريكية لمكافحة التمرد).



أجهزة الإستخبارات الأمريكية

كما انتُهي من دراسة أخرى لم تُنشر بعد، بعنوان (دليل وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية لتحليل التمرد)، إلا أن العقبات التي تواجه المشاريع الصغيرة والتطوُّعية قد تُعيقها عن الاستمرار، ومن ثم تظل أولوية تأسيس مركز بحثي أو وحدة بحثية تُقدَّم لها أوجه الدعم والرعاية، وتُعنى بدراسة تلك المجالات، وترجمة أبرز الأدبيات المنشورة فيها، من الأمور المطلوبة بقوة خلال هذه المرحلة المهمة التي تعيشها أمتُنا، بعيدا عن إنفاق الأموال في أمور لا طائل من ورائها، ولا تسمن ولا تغني من جوع.



كنت معهم (٢)

شاهد على اعتقالات الإسلاميين بالجزائر

الصغير منير

كان جهاز التلْفاز ممنوعا على السجناء السياسيين في القاعات والزنازين، ربما لأنّ إدارة السجون كانت تَعْتدّه نوعا من الترف والرفاهية التي يجب ألا ينالها هؤلاء، أو لأنّ الأمور بعد الانقلاب وفي السنتين الأُوليين كانت واقعيًّا وإعلاميًّا في غير صالح السلطات الانقلابيّة، وكانت نشرات الأخبار لا تَذيعُ إلا أنباءَ اغتيال وقتل الضباط والوزراء والكتاب والإعلاميين والشخصيات السياسية التي ساندت الانقلاب، وكان ذلك يبدو انتصارا لأعداء الانقلابيين من الجبهة الإسلامية للإنقاذ والجهاديين ممّن كانت السجون قد امتلأت بهم، حتى وإن تبيّن لاحقا أنّ كثيرا من هؤلاء اغتالتهم أجهزة الأمن والاستخبارات في موجة تصفيات جسدية، الغرض منها إمّا الانتقام أو إعادة ترتيب التوازنات داخل منظومة السلطة الانقلابيّة.

لـم تكن الفضائيات العربيّة قـد تأسّست يومئذ ما عدا الأمبيسي والتي تتطلب مشاهدتُها صُحُونا لاقطة لا تتوفّر في السجن، ولم تكن الفضائيات الجزائرية قد وُجِدت أصلا، وكان كلّ ما يَبُثُّهُ التلْفاز هو وجهة نظر السلطة في الأحداث ومواقفها، مع كمّ هائل جـدّا من الكذب والتزييف والتدليس وإخفاء الحقائق واتّهام الأبرياء وتزييف الوعي الشعبيّ العامّ، مع كمّ هائل أيضا من البرامج الساقطة التافهة متمثّلةً في الأفـلام والأغـانـي والسهرات التي تُسمّى فنّية ومباريات كـرة القدم وغيرها.

وفجأةً انتبهتْ إدارة السجون -وهي في الغالب تعمل بالتنسيق المباشر مع جهاز الاستخبارات- فأدخلت أجهزة التلفاز في القاعات الكبرى التي يقترب أو يتجاوز عدد المساجين فيها ١٠٠ شخص ورخّصت للمقيمين في الزنازين أن يُدخلوا تلْفازات عن طريق أهاليهم.

ولأنّ عددا كبيرا مـن المساجين كـانـوا ذوي توجّه سلفيّ متشـدّد فقـد رفضوا فكرة إدخـال التلفاز إلى الزنزانات، بطريقة فيها قدر كبير من الشدّة والفظاظة، في حين كان إخوانهم في نفس الزنزانة يريدون التلفاز لمتابعة الأخبار أو للترفيه، أمّا في القاعات فقد وقع نزاع من نوع آخر؛ إذ كان الرافضون للتلفاز يسارعون إلى إطفائه أو فصله عن المقبس أو حتى تغطيته بستار أو لحاف، وبعضهم تنطّع فسمّاه بالطاغوت واتّهم كـلّ من يشاهده بالتمييع والتنازل ورقّـة الدين بل وبالدياثة أحيانا، وكان الآخـرون يـردّون عليهم بوصف التشدّد والتنطّع والخارجيّة والتكفير والجهل وغيرها.

قد يبدو الأمر بسيطا في ظاهره ولا يستدعي أن يُذكَر بكلّ هذا التفصيل، ولكن آثارُه كانت واضحةً جدّا في توتّر العلاقات بين المساجين وتسويق وجهة نظر السلطة وتأثير الأخبار والتحليلات والبرامج التي تُبثّ على نفسيات المساجين وطريقة تفكيرهم ومستوى تعاطفهم مع الحركات المسلّحة في الخارج ومع الانقلاب ومخرجاته وإشاعة روح الهزيمة بينهم واللاجدوى من التضحيات التي بذلوها من أجل قضيّة خاسرة لم تكن لتخفى على أيّ مراقب فطن، سواء أثناء تلك الفترة أو بعد مراجعة أحداثها لاحقا.

هذا إضافةً لاستئناس كثير من السجناء ببرامج الغناء والترفيه التافهة وبطولات كرة القدم التي كانت تستنزف عواطفَهم وتهدر مشاعرهم في شيء لا قيمة له، وتُضعِف حساسيتهم تجاه القضية الكبرى التي من أجلها سُجنوا، بل وتُفسد أخلاق واستقامة الشباب منهم خاصّة، وقد كنتُ شاهدا على نماذج من ذلك في سجني وهران وتاهرت.



كانت إدارة السجن والإعلام الرسميّ وشبه الرسميّ تصف السجناء منذ بداية الاعتقالات بأنّهم سجناء سياسيّون، وكان الأمر كذلك في الحقيقة لأنّهم إنما سُجنوا في الغالب الأعمّ بسبب خياراتهم ومواقفهم السياسيّة أو عضويتهم ومناصرتهم لحزب سياسيّ قام الانقلابيّون بحلّه، أو حتى حمل السلاح من أجل الدفاع عن خيار سياسيّ ما، أو دفعا لظلمٍ مارسه عسكر وسياسيّون متحالفون معهم. ثمّ بعد حوالي عامين تُخُلِّي عن استخدام كلمة (سجناء سياسيين) لتتحوّل إلى (السجناء الإرهابيين)، وأُذكّر القارئ هنا أن المخابرات كانت تُسيطر وتراقب الوضع داخل السجون عن قرب شديد، ولم تكن إدارات السجون -وهي التابعة لوزارة العدل قانونيا- سوى فرع للمخابرات بشكل أو بآخر.

> "كان مصطلح (الإرهابيون) مصطلحا جديدا، الغاية منه التنفير والتشويه وبناء صورة ذهنية عن كلّ من يعارض الانقلابيين، أنّهم قتلة ومجرمون وهمجيّون، هذا على المستوى الشعبي، أمّا على مستوى المساجين فقد كان الهدف منه تقزيم صورتِهم عند أنفسهم ودفعهم للتبرّؤ من هذه الوصمة والبحث عن أيّ سلوك أو خطاب يجعلهم يَظهرون في عيون أنفسهم وسجّانيهم والمجتمع معتدلين أبرياء من تهمة الإرهاب."

وقد أثمر ذلك للأسف، فقد صار سجناء الحقّ العام يصفون مساجين الجبهة بالإرهابيّين، فيقول أحدهم وهو ذاهب مثلا لجناح يُقيم به هؤلاء: أنا ذاهب لجناح الإرهاب، أو يقول طبيب السجن: اليوم نوبة الإرهابيين في أخذ الدواء، حتى صار وصف الإرهابيّ كلمةً شائعة غير مستهجنة ولا غريبة على ألسن السجناء والسجّانين، وحتى على ألسنة أهالي المساجين وأُمّهاتهم بل وزوجاتهم وأبنائهم، وما زلتُ أذكر جيّدا أحد الشيوخ من سكّان الجبال كان بيته مأوًى للجماعات المسلّحة في منطقته، وكان يُحبّ أمير الجماعة ويحترمه، فلمّا التقيت به في السجن كان يُحدّثني عن هذا الأمير فيقول لي: كان إرهابيّا طيّبا ومؤدّبا وخلوقا ولا يظلم أحدا!! كان الشيخ المسكين من كثرة سماعه لوصف الإرهابيّ يظنّه مرادفا لوصف مجاهد أو مقاتل.

وقد تولّى الإعلام كِبَرَ ذلك، فمارس نوعا من الاستخدام الفجّ لهذا المصطلح وأكثر منه بمناسبة وبغيرها وفي كل السياقات حتى في المقالات والتحاليل الاقتصادية بل والرياضية أحيانا وصار يحشُرُها في كلّ نقاش أو خبر وتعليق. وقد تفاجأ كثير من المساجين عند خروجهم بأنّ الجميع كان يُسمّيهم إرهابيين، ووجد كثير منهم أنفسَهم غرباء في قراهم وأحيائهم وبين أُسَرِهم ومعارفهم.

من الطرق التي استخدمها بعض مديري السجون إمعانا في الإذلال والإهانة وكسر النفسيّات أنّ مدير السجن وكبار الضباط فيه كانوا يُعطون السجناء أسماء نساء أو يطلبون من السجين أن يختار اسم امرأة ثمّ لا ينادونه بعد ذلك إلا به، ويطلبون حتى من إخوانه أن ينادوه به ويُكثرون من ذلك ويلحّون عليه، وهم يعلمون يقينا أنّ ذلك يَكسرُ نفسيّتَه ويُحطّمُ رجولته ويُشعره بالهوان، وقد حدث ذلك على الأقلّ في سجنين مررتُ بهما هما سجن وهران وسجن تاهرت.

أسلوب آخر في الإذلال في بعض السجون كان يتمثّل في أن يُخرِجَ مديرُ السجن أو معاونوه أحدَ المساجين مع أحبّ رفقائه إليه وأكثرهم ملازمةً له ثم يأمر الأوّل بضرب الثاني بصفعه على وجهه ثم يصفع الثاني الأوّل، يُأمران أن يفعلا ذلك حتى يَتْعَبَا أو يسقط أحدهما، ومن رفض أن يفعل ذلك ناله الضرب والتنكيل حتى يضعف فيفعل أو يسقط مغشيّا عليه. وقد كان كثير منهم يرفض ذلك ويتحمّل الضرب والسياط، ولكنّ بعضَهم كان يضعف ويخاف ويتحمّل أن يَضرب ويُضرب صفعات معدودات على أن تناله سياطُ وعِصيّ وركلات السجّانين.



ولأنّ عددا كبيرا من المساجين في البدايات كان من الطلبة والأساتذة والمهندسين والأئمة، وهؤلاء في العادة كانوا يعيشون بين أهليهم مكرّمين محترَمين يوقّرهم الناس، وغالبهم لم يمارس في حياته مهنة أو عملا شاقّا أو مُهينا في العرف الاجتماعيّ فليس في العمل كلّه ما يُهين فقد كان من الأساليب المعتمدة في السجون تكليفهم بالأشغال الشاقّة مثل تنظيف الساحات والقاعات وتنظيف المراحيض وغيرها، وهو أمر يمكن احتماله، ويتعوّد عليه السجين مع الوقت، ولكنّ السجّانين كانوا يَزيدون على ذلك سبّ الدين وسبّ الله سبحانه وتعالى وقذف أمّهات المساجين واستعمال أقذع وأحطّ العبارات، مع الضرب بالسياط والعِصيّ وتعمّد الإذلال والقهر. وما زلت أذكر الطبيب د.محمد من حيّ الأبيار وكان من عائلة ثريّة ذات أصول أندلسية أو تركيّة، لا أذكر جيّدا، وكان اختصاصه طبّ وجراحة العظام، ما زلت أذكر كيف كان السجّانون في سجن تيارت يتعمّدون إهانته وتحطيم عزّة نفسه، وقد ضربوه مرّة حتى كُسرت ذراعُه فلم يكن ذلك يؤلمه ويؤثّر في نفسيته مثل ما كان يَسمعه من إهانات وسبّ وشتم، ومثله كثير.

وكانت إدارة السجون تمنح هؤلاء السفهاء في بعض الأوقات حرّيّةَ التصرّف مع السناء بعيدا عن أيّ رقابة أو ضبط إداريّ، بما يُشبه التحريض أو غضّ الطرف عنهم، فكانوا حينها يزدادون قسوة وهياجا ضدّ المساجين.



وقد كان الإعلام الرسميّ وتوجيهات أجهزة الأمن المباشرة وغير المباشرة تَزيد من شحنهم نفسيا ضدّ المساجين باعتدادهم إرهابيّين وقتلة ومجرمين، خاصّة وكلّ هؤلاء السجّانين يَعُدّون ما يُسوّقه الإعلام الرسمي حقًّا لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، ومع الإلف والاعتياد وطول مدّة الصراع المسلّح خارج السجون واشتداد ضراوته كانت معاملتُهم تزداد سوءا وعنفا، وبعضهم كان يُقتَل لهم أقارب وأصدقاء لكونهم شرطة أو درَكا أو من الميليشيات التي تأسّست بعد عام ١٩٩٥ ، فكانوا لا يجدون طَرَفًا يُفرغون فيه غضبهم وحَنَقَهم إلا المساجين المستضعفين.



وبسبب ذلك العنف والقسوة وطريقة التعامل مع السجناء التي اشتَهر أمرُها وشاعت على ألسنة النّاس خارج السجن، فقد كانت التنظيمات المسلّحة -التي لها عناصر تنشط في الاغتيالات داخل المدن- كثيرا ما تقوم بقتل ضبّاط وأعوان إدارة وسجّانين خارج السجن معروفين بحقدهم على السجناء وتنكيلهم بهم، وكانت هذه الاغتيالات في الغالب تُخيف هؤلاء وتردعهم وتُخفّف من الضغط على السجناء لأَشهُرٍ عديدة، وتتحسّن فيها المعاملة بشكل واضح، وقد حدث ذلك في كلّ المدن التي كان يوجد بها سجون تقريبا، وما من سجن إلّا وقُتِل منه على الأقلّ اثنان، وبعضها بلغ عدد من قُتل منه من السجّانين أكثر من ستّة، وقد كنّا نعرف أنّ أحدهم قُتِل حتى دون أن يصلنا أيّ خبر من خارج السجن حين تُفتَح الزنزانات والقاعات صباحا للخروج إلى الساحات فنرى رؤوسَهم مُطرِقة وقد علا وجوههم الوجوم وهم صامتون هادئون على غير عادتهم، وبعضُهم يحرص على إظهار التودّد وحسن المعاملة في حين كانوا قبل ذلك لا تسمع منهم عند الخروج صباحا إلا لسبّ والشتم والصراخ الشديد والتلويح بالسياط والعِصيّ. ومع ذلك فإنّهم سرعان ما كانوا يَنْسُون وتغلِبُهم طباع السوء ويخضعون من جديد لضغط الإدارة أو تعليمات المخابرات حين يرون أنّهم آمنون أو أنّ وتيرة القتل في المدن قد خفّت أو انقطعت لأيّ سبب من الأسباب.

وللحديث بقيّة...

مادة حصرية

مذكرات الشيـخ رفاعي طه (٢)

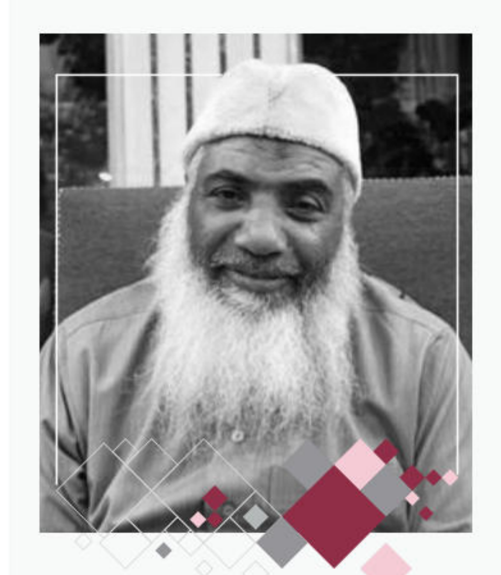
أول الطريق إلـى المسجد .. وأول الطريـق إلــى السياسة

— سجلها عنه وحررها: محمد إلهامي —



لما أقمنا في إدفو، بالتحديد في قرية كوم الأمير التي بها المصنع، ذهبتُ إلى كُتَّاب الشيخ حسين، وهو الكُتَّاب الثاني في حياتي، كان شيخه حسين أشهب، ثم حَدَثَتْ واقعة طريفة كانت طريق دخولي للمدرسة الابتدائية .

قدَّر الله أنّ جارنا في منزلنا بإدفو الأستاذ صادق كان مدرسا ابتدائيا، وكان يعطي الدروس الخصوصية لتلميذين: متولي وعبد الرازق، فكنت أذهب لأحضر معه هـــذه الدروس بحكم الجيرة، ولم يكن يصرفني ولم يطالبني بأموال أيضا، وأحيانا حين كان يسأل متولي أو عبد الرازق أسئلة كنت أجيبه عنها، وتكرر هذا مني حتى سألني بعد نحو شهر: أين تتعلم فإني لا أراك في المدرسة؟! ولم يكن بالمركز سوى هذه المدرسة التي يُدرِّس فيها، فذكرت له أني أذهب إلى كُتَّاب الشيخ حسين!



فقال: هل تريد الذهاب إلى المدرسة؟

فقلت: لا أدري، اسأل والدِ.

وحين عاد أبي من عمله بادره الأستاذ صادق

فسأله: يا عم أحمد، أي مدرسة يذهب إليها ابنك؟

فقال أبي: المدرسة بعيدة عنا، ولكنه يذهب إلى الكُتَّاب.

فقال: يمكن أن آخذه معي إلى المدرسة.

فقال أبي: يكون لك جزيل الشكرا!

وهكذا دخلت إلى المدرسة الابتدائية!

كان الأستاذ صادق يُدرّس في الصف الثالث الابتدائي، فاصطحبني معه فأجلسني في الصف الثالث مباشرة، ثم أجلسني في مقدمة الفصل، وحين جاءت حصة القراءة قال لي: اقرأ. فلم أعرف، فأخذ يشجعني ويقول: اقرأ.. اقرأ، فلم يكن مني إلا أن بكيت، فأخذ يربت على كتفي ويهدئني، ثم حين جاءت الراحة التي تكون في منتصف اليوم الدراسي، أخذ بيدي ووضعني في الصف الثاني الابتدائي، وكان يُدرّس به الأستاذ محمد عبد الجواد، ولم يكن ثمة مكان فارغ إلا آخر مكان، فأجلسني فيه، ولم يطلب مني القراءة في البداية، ثم بدأ الأطفال بالقراءة واحدا تلو الآخر، فلما جاء دوري كنت قد حفظت النصّ الذي يقرؤونه،

فلاحظ الأستاذ أني لا أقرأ ولا أقلب الصحفة، لقد وضعت كل تركيزي في حفظ النص، وهو ما كان، فاقترب مني الأستاذ محمد كأنه معجب بي، وقال: اقرأ صفحة أخرى، فعجزت عن ذلك، فأدرك أنني لا أعرف القراءة ولكنني أحفظ بسرعة، **فقال:**



- ما اسمك؟
- اسمي رفاعي أحمد طه
- من أين أنت؟
- من أرمنت
- أنت جيد يا رفاعي

وأعطاني إصبع طباشير أحمر كمكافأة، وصار يعاملني بلطف، ويعلمني القراءة كل يوم، ويعلمني في وقت الراحة وحدي بعيدا عن بقية التلاميذ، وبهذا بَقِيْتُ في الصف الثاني ولم أدخل الصف الأول، واستمررت في هذه المدرسة، وكنت دائما صاحب المركز الأول.

ومع هذا فقد استمر انتظامي في الكُتَّاب، إذ كنت أذهب إلى المدرسة صباحا وإلى الكُتَّاب عصرًا، وقد طلبت من الشيخ حسين أن أُغيّر موعدي إلى العصر، وكان في الكُتَّاب شاب في الخامسة عشرة من عمره يحفظ القرآن ويُحفِّظ آخرين كذلك، وفي ذلك الوقت عرفنا الألواح الخشبية وعرفنا "الطفلة" التي نمسح بها المكتوب. لقد كان الفارق بين القريتين كبيرا، ويرجع ذلك بالأساس بسبب المصنع، إذ أنه يستجلب الكفاءات للعمل، مما يعود على ارتفاع مستوى القرية، وكانت المدرسة جميلة نسبيا، وكنت أول مرة أعرف هذا الذي نجلس عليه، يُسمى "الدُّرج".

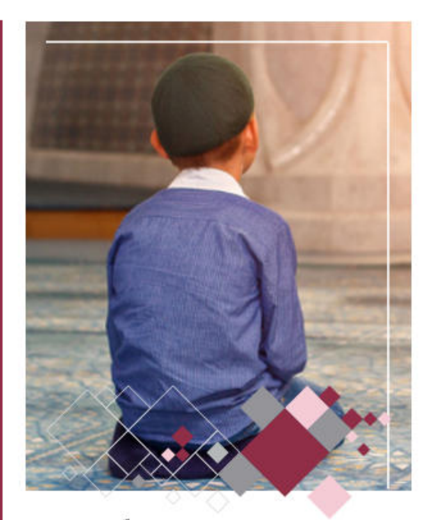
في تلك الفترة كان أكثر الناس تأثيرا فيّ الأستاذان: صادق ومحمد عبد الجواد، كان الأستاذ محمد يُحبُّني كثيرا، ويوليني عناية خاصة، وكنت مستمرا بالحضور في درس الأستاذ صادق مع متولي وعبد الرازق دون أن يطالبني بنقود لفترة طويلة، وكان يُعلِّمني الصلاة، وعلى الرغم من أن الشيخ حسن كان يعلمني القرآن لكنه لم يكن مهتما بهذا الأمر ولم نكن نصلي في الكُتَّاب.

بدأت مرحلة التدين حين انتظمت في الذهاب إلى المسجد، كان هذا في السنة الرابعة الابتدائية، كان والدِي يُصلّي الجمعة في المسجد ويأخذني معه، ولا أتذكر أنه اصطحبني في أي صلاة أخرى، وعندما ذهبت أول مرة للمسجد غمرتني السعادة، إذ وجدت كثيرا من الناس يصلون، فتعلقت بالمسجد، فكنت أقول لأبي: سأذهب للصلاة، وأذهب بمفردي، ثم لاحظ الشيخ محمود عسران إمام المسجد أني أصلي وليس معي والدي، فقال لي:

- أنت يا عِزّ، (واشتهرت في تلك الفترة باسم عزّ) تأتي دائما للصلاة، فلماذا لا تصلي معنا الفجر؟
- وما الفجر؟
- صلاة الصبح، هناك صلاة نصليها عند الصبح اسمها صلاة الفجر.. ألا تصلي الفجر في البيت؟
- لا، أنا أصلي الصبح قبل الذهاب إلى المدرسة.
- ألا تصليها في وقت الظلمة؟
- لا، أصليها عند ذهابي للمدرسة والشمس مشرقة
- إن صلاة الصبح تكون في الظلام وليس عند الشروق.

فكنت بعدها أريد أن أسهر الليل حتى يؤذن الفجر فأصلي، ولكني نمت وقلت لأمي: أيقظيني في صلاة الفجر، لكنها لم تفعل. ثم استيقظت في الظلام فظننت أن الفجر قد حان وقته، فتوضأت وصليت ركعتين، ثم رويت هذا للشيخ محمود عسران فضحك كثيرا، ووعدني أنه سيمرّ عليّ عند صلاة الفجر ليصطحبني معه، وأوفى بوعده.

لكن أزمة الربو كانت تشتد عليّ، ففي طريقي إلى المسجد أتوقف فأجلس خمس أو ست مرات لشدة الألم، وحاولَت أمي أن تُقنعني بالصلاة في البيت لسبب المرض، وذات مرة شتمت الشيخ محمود وصاحت به: ألا ترى أنه مريض، ولا يستطيع الذهاب؟! فقال لها: إن هواء الفجر جميل، ولعله يُشفى به، دعيه يصلي لعل الله يشفيه!



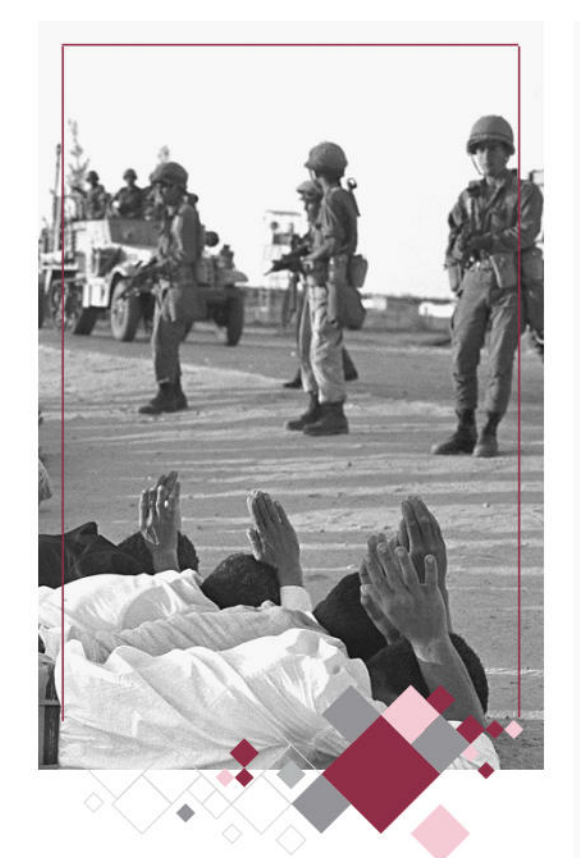
وكان الشيخ محمود على معرفة بمُمَرِّض نصراني اسمه ميلاد، فسأله عن حالتي، فكشف عليَّ ثم سألني: من والدُك؟ ولمّا عرف أنه يعمل قريبا من المصنع سألني: لماذا لا يأخذك إلى العيادة الطبية بالمصنع؟ أنا أشتغل هناك، ولعل الطبيب يعالجك، ثم أعطاني حقنة كالسيوم لتخفيف المرض، ولما سألت والدي تعجَّب وقال: فعلا أنا أعرف ميلاد، كيف لم أفكر فيه من قبل؟ ثم أخذني إلى الطبيب وأعطاني نفس تلك الحقن، وكانت تخفف من حالتي وبهذا انتظمت في الصلوات الخمسة جميعا.

كان الشيخ محمود عسران حاصلا على الثانوية الأزهرية، ويعمل كاتبا بالمصنع، وكلّفته إدارة المصنع إلى جوار هذا العمل بمسؤولية المسجد، فكان يعمل كاتبا وإماما للمسجد، كان متدينا بسيطا، لم يكن على كثير علم وكانت أكثر خطبته باللغة العامة لا الفصحى، وكان يقول لي: يا بني، هذا الملك (فاروق) كان ملكا صالحا، بل لقد كان لقبه "الملك الصالح"، ولكن أولئك العسكر أشاعوا عنه ما يُسيء إليه ليُدينوه به.

لقد كنت صغيرا لا أدرك معنى ما يقول، ولست أدري الآن ما هي المناسبة التي قال لي فيها هذا الكلام.

أول ما أتذكره من الأمور العامة هي إعدام سيد قطب، كنت في الصف الخامس الابتدائي، وأتذكر أن أمي كانت تدعو على الإخوان وتقول "ربنا ينتقم منكم يا إخوان، أنتو عايزين تهدوا السدّ العالي ليه؟"، فعلقت في ذهني كلماتُها فسألتُها: من هم الإخوان؟ فقالت لي: شخص يُدعى سيد أعدموه لأنهم يريدون هدم السد العالي، ولكن الرئيس أمسك بهم ونصره الله عليهم. كذلك كانت تقول عنهم "ناس عِفْشين"!

أما ما أتذكره جيدا فهو نكبة 7691، فقبل وقوع الحرب حدَّثنا مدرس المواد الاجتماعية، وكان اسمه عبد العظيم، بأننا سوف ننتصر في هذه الحرب حتما، يقول: هذا العالَم منقسم تحت دولتين: الاتحاد السوفيتي وأمريكا، فنحن سوف نهزم إسرائيل، فإذا ساعدتها أمريكا فسيتدخل الاتحاد السوفيتي ويساعدنا، والاتحاد السوفيتي أقوى من أمريكا، وحين ننتصر سيكون اسم دولتنا "مصر وفلسطين"، فغزة هي جزء من فلسطين ولكن مصر هي التي تحكمها.



قامت الحرب وهُزِمنا، ولم أكن حينئذ أدرك معنى الهزيمة، وأتذكر أن أبي عاد يومذاك حوالي الساعة ١٢ ظهرا، وكان يبكي بكاء شديدا، وفزعت أمي وصارت تسأله: "مالك فيه إيه؟ مالك؟"، فيقول لها: "اسكتي اسكتي جمال استقال".

ثم أعطونا عطلة وجاءوا بسيارات كبيرة وجمعونا من البيوت لنذهب من قرية كوم الأمير إلى إدفو للتظاهر رفضا لاستقالة جمال عبد الناصر، وهي مظاهرات ٩ و ١٠ يونيو. وأذكر أن تلميذا كان إلى جواري وقع على الأرض فمرت عليه السيارة، فسحقت رأسه تماما! لقد رأيت بنفسي رأسه مسحوقة ملتصقة بالأرض، وكان مشهدا لا أنساه أبدا، ولكن الناس صاحوا: فداءً لجمال عبد الناصر! فداء لجمال عبد الناصر. ولم تتوقف السيارة!

كان الناس كثيرون في إدفو، كانوا يهتفون "أنور أنور يا سادات.. احنا اخترنا جمال بالذات"، وكان السادات وقتها رئيسا لمجلس الأمة (البرلمان)، وكانت الاستقالة قد قدّمها عبد الناصر أمام مجلس الأمة واستخلف فيها زكريا محي الدين، ولم يزل هذا الهتاف محفورا في ذهني، ثم عدنا إلى القرية وأخبرونا في اليوم التالي بأن جمال عبد الناصر قد تراجع عن الاستقالة.

كان الناس في سعادة غامرة لمَا يأتيهم من أخبار الانتصار وما أسقطناه من الطائرات، ثم فجأهم خبر الهزيمة والتنحي كالصاعقة، وفي ذلك الوقت لم أكن أدرك كيف انتصرنا أو انهزمنا، ولم أكن أدرك لماذا استقال جمال عبد الناصر ولماذا تُطالِب الناسُ بعودته؟ لم أكن أدري كل هذا في هذه المرحلة ولكني أسمعه فقط.

...

تفكيك أدوات السلطة

(القوة المسلحة)

— د. عمرو عادل —

"إذا كنتَ بعيداً عن العدو فاجعله يعتقد أنك قريب".

هذا ما قاله (صن تشو) منذ 52 قرنًا تقريبا، وما زالت أقواله مرجعا لكل من له عدو يحاول الانتصار عليه، والعدو أصبح في شوارعنا كما نعلم جميعا، يملأ المؤسسات والأقسام والوحدات العسكرية، ولذلك علينا أن نتّبع أقوال (صن تشو)، وأرجو من الجميع قراءته، فهو خطوة مهمة في طريق الخروج مما نحن فيه.

القوة المسلحة وسيلة المجتمع الكبرى لحمايته من أشد الأخطار عليه، ويمكن توصيفها في عدة نقاط:

(١) القوة البشرية.

(٢) الاستراتيجيات والتكتيكات العسكرية والعقيدة القتالية.

(٣) السلاح.

هـــذه العناصر الثلاثة واجب البحث عـــن مسارات إضعافها وتفكيكها في مسار تفكيك أدوات السلطة، وهذا الموضوع محل الحديث، وقبل الخوض في الوسائل والمسارات المقترحة ينبغي الاتفاق على عدة أمور مبدئية:

١ الشعب -أيُّ شعب- له الحق في امتلاك السلاح الذي يدافع به عن نفسه حتى في وجود قوى نظامية مؤسسية لتلك الوظيفة، فسقوط الجيوش وخاصة المهترئة كحالة الجيوش العربية لا بد أن يتبعها وسيلة شعبية للمقاومة.

٢ ما يسمى بالجيش المصري أكّد على مدى تاريخه ومنذ إنشاءه على يد الإنجليز في ١٨٨٢ أنه أقرب لجيوش الاحتلال منه لجيش "وطني"، كما أن فكرة الجيش الوطني تحتاج إلى مراجعة في بنية السلطة الحديثة، ليس هذا مجالها الآن.

٣ العبرة بتقييم مؤسسة ما ليس باسمها ولكن بما تفعله وتقوم به من إجراءات وسياسات، وعمامة أو جلباب الجيش الوطني واللسان الواحد ولون الوجه الواحد ليست فقط كافية للتقييم.

٤ أن ما تسمى مؤسسة الجيش تحوّلت لطبقة حاكمة مع بعض القوى الأخرى، وانفصلت عن الشعب تماما، مما يُتيح لنا بقدر كبير من الثقة عدم اعتدادهم من شعب مصر الكبير.

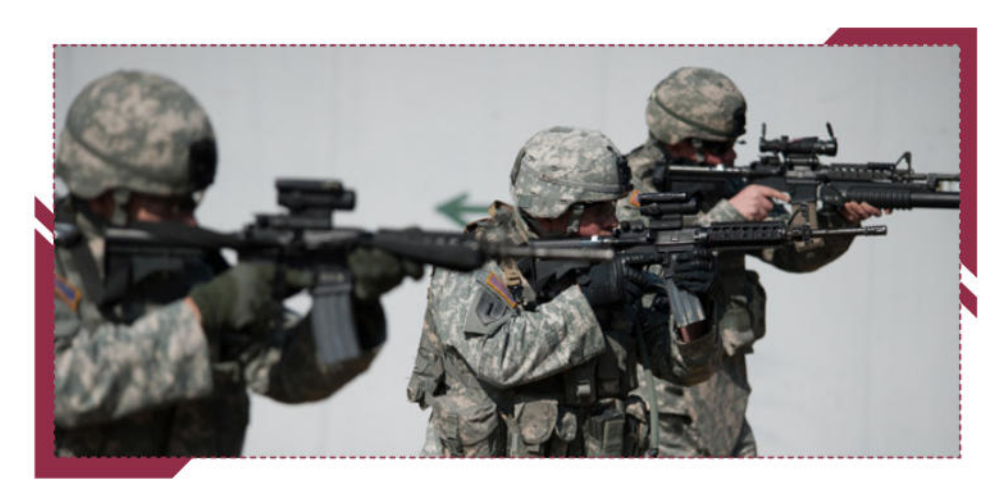
والآن يمكننا بعد الاتفاق على هذه الأمور الأربعة أن نبدأ في تحديد المسارات والإجراءات لتفكيك كل عنصر من العناصر الثلاثة المذكورة:

أولا: القوة البشرية

الجيوش في المجتمعات القوية هي خط الدفاع الأول عن الأمة، ولذلك فإن الشعب بأكمله يجب أن يتحول إلى جيش في حالات الخطر، وهناك نماذج متعددة لذلك مثل مؤسسات قوات الدفاع الشعبي الرسمية أو جماعات المقاومة الشعبية التي تظهر بعد انهيار أو خيانة الجيوش، وتعتمد سرعة تكوين وبدء المقاومة الشعبية بعد انهيار الجيوش على مدى الاستعداد الفكري والنفسي لدى الشعوب للمقاومة، كما تعتمد على إدراكهم أن هذا حق أصيل قبل أن يكون واجبًا جماعيًّا لكل القادرين على الفعل المقاوم.

وفي حالاتنا في الأمم العربية والإسلامية، في غالبها، لم تعد الجيوش إلا وسائل استكمال الاحتلال بصورة أكثر لطفا، وبالتالي يجب على الشعب المقاومة، والغريب أن الدول التي تعتمد على التجنيد الإجباري كحالة مصر تستخدم القوة البشرية من الشعب الذي تنتهكه في حماية نفسها وبناء قوتها البشرية.

فما يُسمى بالجيش المصري في حالة انعزال عن باقي الجيش، وهو الشعب، كما أنه يستخدم عناصر شعبية في تكبير حجمه.



فعلينا إذن تفكيك القوة البشرية التي يستخدمها وذلك بنشر وعي عام داخل قطاع الشباب المقبل على التجنيد أو في فترة الاحتياط بالآتي:

١. الجيش لا يُدافع عن مصر، لا الشعب ولا الأرض، بل يُدافع عن النظام الحاكم الذي يحمي إسرائيل ولا يخرج عن المجتمع الدولي ومصالحه، ومدة البقاء بالجيش هي فترة استعباد غير مباشر للأعداء.

٢. التجنيد الإجباري مفهوم في حالات الحرب، أما في الحالات العادية فهي عبودية.

٣. الجنود منتمون للشعب أولا وأخيرا، ووجودهم في جيش الاحتلال لا يعني انفصالهم عن الشعب.

٤. الجندي في حالة الثورة يضع سلاحه أرضا، تاركا القلة الموجودة من الضباط والصف، ولا يرفع سلاحه ضد الشعب الذي ينتمي إليه.

٥. الجندي هو سائق السيارة والدبابة والمدرعة وحامي الوحدات والقائم على الاتصالات، وإذا قرر الانسحاب فلن يبقى أحد في مواجهة الثورة.

٦. كل جندي يجب عليه حفظ كل شبر في الوحدة التي يؤدي فترة التجنيد فيها، فربما يكون ذلك مفيدا في وقت ما.

هذه الأمور وغيرها تحت مسار محدد ألا وهو أن القوة البشرية الغالبة داخل ما يسمى الجيش تنتمي بالأساس للشعب، ولذلك فإن التوعية السابقة للثورة لهذه الكتلة، وتحديد إجراءات معينة لهم أثناء المد الثوري تُحقّق شلل القوة المسلحة وتُعجزها عن المواجهة، وهي النصر الأكبر. نذْكر (صن تشو) مرة أخرى بقوله: " يكمُن فن الحرب الفائق في إخضاع العدو دون قتال."

ما يمكن أن يفعله الجنود داخل الوحدات -كلُ حسب مكانه- كثير للغاية، لا يتسع المجال لذكره، وهو متروك لإبداع الشباب المقبل على التجنيد. وهناك نقطة أخرى مهمة تتعلق بالصبر والقدرة على ضبط النفس، فعدم التعجل والصمت العميق لكل فرد= قوة لا تُقهر.

ثانيا: الاستراتيجيات والتكتيكات العسكرية والعقيدة القتالية.



"ينبغي إدراك أن القوة البشرية والسلاح يتحول إلى عبئ وليس قيمة مضافة في حال غياب استراتيجيات واضحة وتكتيكات منضبطة تحت مظلة أفكار كلية "العقيدة القتالية"، ولذلك فتفكيك تلك الأدوات غاية في الأهمية."

فعلى مستوى العقيدة القتالية، ينبغي التأكيد الدائم على أن العقيدة القتالية لمَا تُسمى المؤسسة العسكرية لم تعد متوافقة مع الشعب، بل أصبحت في حالة عداء معه، وهي في الغالب ليست مكتوبة وتحتاج إلى أبحاث منضبطة علميا، لتأطير العقيدة الحالية لتلك العصابات المنظمة، وترسيخها الدائم في عقول الجماهير بكل الوسائل المتاحة.

أما على مستوى الاستراتيجيات والتكتيكات، فكل ما يمكن معرفته عن تكتيكات التحرك والمناورة وخطط العمليات من الجنود وهم القوة الضاربة والفاعلة أثناء فترات التجنيد هي أحد أهم المحاور لشل حركة القوة المسلحة أثناء المد الثوري، فمعرفة العدو أحد محاور النجاح في المواجهة، وبمعرفة كل تكتيكات التحرك يمكن تخطيط المواجهة بأقل قدر من الخسائر.

لا أريد الخوض فـــي مفهوم الخيانة والولاء ... فهذا يحتاج إلــى الكثير من الكلمات والأفكار ليس هذا مجالها، ولكن بشكل عام لا بد أن تُحدّد مكانك وتُوصّف الوضع بشكل بسيط وعميق، فنحن شعب محاصر ومسجون داخل بلاده بواسطة قوة مسلحة مجرمة، ولذلك فإن تصنيف هذه القوة المسلحة على أنها عدو أحد البديهيات التي لا تقبل الجدل، وبناءً على هذه الحقيقة فالتعامل مع هذه الكتلة المسلحة يجب أن يكون على هذا الأساس، فقط حدّد مكانك... هل أنت مع الشعب أم أعدائه؟ وفي تلك اللحظة ستُدرك لأي جانب تنتمي.

ثالثًا :القوة المسلحة

هذه أكبر العقبات في طريق التحرير، والعمل الدؤوب على المحورين السابقين، بتفكيك القوة البشرية وجعلها قوة سلبية لدى النظام، وكذلك بإضعاف القدرة التكتيكية والحركية للعدو بمعرفة خططه واحتمالات تحركه، يقلل كثيرا من فعالية القوة المسلحة، ولكنه بالتأكيد لا يمكنه القضاء عليها كليّا.



وهناك مساران مهمان للتعامل مع القوة المسلحة:

1. **الإمدادات اللوجستية:** تُعد الإمدادات اللوجستية من وقود وقطع غيار وذخائر روح المُعِدّة العسكرية، وفي غيابها تتحول المعدة إلى قطعة من الحديد لا قيمة لها، ومن الأمور التي ربما ما زالت على حالها أنّ قوة الذخائر الرئيسية لأي تشكيل في مصر تبتعد عن موقعه بمسافات تصل إلى ١٠٠ كم، وذلك لمنع أي احتمال لحدوث تمرد مسلح، ولذلك فإن معرفة شبكات إمدادات الوقود والغذاء للوحدات وحرمان الوحدات منها يُضعف تماما من القوة الفعلية للأسلحة كما أنه يصيب القوة البشرية بحالة من الإحباط والخوف، وهذا كاف لخروجها تماما من المعركة، وخاصة في غياب عقيدة قتالية أخلاقية منتمية للشعب عند هذا الجيش.

٣ **الأسلحة:** في حالة النجاح الجزئي أو الكلي للإجراءات السابقة، يُصبح احتمال خروج واسع للسلاح محدودًا، ولكنّ الأمر ما يزال خطيرا ومؤثرا وربما حاسما، إذ الاستعداد للمواجهة مع القوة المسلحة لا بد أن يكون واسعا ومؤثرا، نُذكّر أننا نتحدث عن ثورة شعبية ووجود شعبي واسع في المقاومة، ولذلك فالجميع مدعو للعمل ولو كنت وحدك، وفي عدة مقالات قادمة -إذا تيسر الأمر- سيكون الحديث عن كيفية بناء التنظيمات الثورية حتى لو كنت وحدك.



والاستعداد للمواجهة يحتاج إلى طرق مبتكرة وأفكار بسيطة في متناول الجميع يمكنها تقليل أو إنهاء قدرة السلاح على العمل، أو شل حركتها، والمهندسون وخاصة من له خبرة بالعمل العسكري هم الأقدر على التفكير في هذا الأمر، وكل فكرة مهما كانت بسيطة قد تكون حاسمة.

إن الهدف من كل ذلك هو توسيع دائرة المشاركة في كافة المحاور على المسارين الرئيسيين للتحرير، وهما: تقوية البناء المجتمعي، وإضعاف وتفكيك أدوات السلطة. وكل منا قادر على فعلٍ ما في مكانٍ ما لإنجاح ذلك، أما كيفية ربط كل هذه الأمور ببعضها، فهذا ليس عملا كلاسيكيا معروفا مسبقا، ولكن له بعض المعايير والاحتمالات، وهذا له حديث آخر.



محمدُ بنُ مسلمة

يسرا جلال

لم يُفكّرُ (مَسلمة بن خالد) كثيرًا قبل أن يُسمي ولده (محمدًا).. فقد سمع من يهود يثرب أنّ هناك نبيًّا اقترب زمانُه وأنّ اسمه سيكون (محمدًا).. يبدو أنه كان يطمع في أن يكون هو والدَ النبي المنتظر..

غير أنّ (محمدَ بنَ مَسلمة) لم يصبح ذلك النبي.. فهناك في صحراء مكة وبعد اثنين وعشرين عامًا من ولادة (محمد بن مسلمة) نزل المَلِكُ جبريلُ بالوحي على (محمد بن عبد الله) صلى الله عليه وسلم..

لم يسمع (محمد بن مسلمة) بالوحي فور نزوله على (محمد بن عبد الله) -صلى الله عليه وسلم- في مكة، تأخر ذلك حتى اثني عشر عامًا بعد النبوة حين أقام (مُصعبُ بنُ عُمَيْرٍ العبدري) في دار (أسعدَ بنِ زُرارة) في يثرب يدعو إلى الإسلام بعد أن اختاره رسولُ الله ليكون سفيرًا للإسلام إثر بيعة العقبة الأولى.

أنـار الله قلب (محمد بن مسلمة) بنور الإسلام وشرح الله صـدره لكلـمات القرآن، ووجد في قلبه نقمةً على أهل مكة، كيف يؤذون الرسول وأصحابه؟ كيف لم تستضئ قلوبُهم بنور الوحي؟ إنّ هذا الدينَ لحقيقٌ أن يُتّبع ويُفدى بالروح والنفس والولد لا أن يُحارب..



سمع المسلمون في يثرب بمخرج رسول الله -صلى الله عليه وسلم- من مكة.. فكانوا يغدون إلى الحرّة جنوب المدينة ينتظرونه، وكان (محمد بن مسلمة) يخرج مع الناس عَلّ عيناه تحظيان برؤية رسول الله، ولكنّ الحر الشديد وقت الظهيرة كان يرده إلى داره. واستمر يترقب الرسول كل يوم حتى قفل عائدًا إلى داره في أحد تلك الأيام وإذا بصوت رجل من يهود ينادي بأعلى صوته: (يا معاشر العرب.. هذا جَدُّكم الذي تنتظرون)[1].

ارتفع صوت التكبير في المدينة وارتجّت البيوت والسكك بأصوات التحميد والتقديس. كان يومًا أغرًّا.. يوم أن اكتحلت عينا (محمد بن مسلمة) برؤية (محمد بن عبد الله) صلى الله عليه وسلم.

وكان يومًا أغرًّا ذلك الذي نصر الله فيه عباده على المشركين يوم بدر.. حين فر المشركون مذعورين من ساحة المعركة لا يلوون على شيء.. وعادت المدينة لترتجَّ طرقاتُها بالتكبير والتهليل بعد عامين من هجرة الرسول إليها..

احترق اليهود غيظًا وحَنَقًا على المسلمين، وانبعث (كعبُ بنُ الأشرف) كبير بني النضير يهجو رسولَ الله والمسلمين، حتى أنه ترك المدينة إلى مكة ونزل في قريش ينشد الأشعار ويرثي قتلى قليبِ بدر ثم عاد إلى المدينة يُشبّب بنساء الصحابة ويؤذيهم.

ضاق المسلمون بإيذائه لهم، كما ضاق الرسول -صلى الله عليه وسلم- بسلاطة لسانه. ما جعل الرسول -صلى الله عليه وسلم- يتحدث إلى أصحابه: "من لكعب بن الأشرف فإنه آذى اللهَ ورسولَه". فقام (محمد بن مسلمة) فقال: "يا رسول الله، أتحب أن أقتله؟" قال: "نعم"[2].

استأذن (محمد بن مسلمة) رسول الله في استعمال الخديعة مع (كعب بن الأشرف)، فالرجل شاعر مترف من أثرياء المدينة وكان له حِصنٌ عند ديار قومه من بني النضير، ومحاولة قتله تحتاج إلى خطة محكمة.

---

(١) الجد: صاحب المنزلة العظيمة، المباركفوري، الرحيق المختوم، ص ٢١٧، رابطة العلام الإسلامي، ط الثامنة.

(٢) صحيح البخاري، كتاب المغازي، ٣٨١١.

اتفق (محمد بن مسلمة) مع (أبي نائلة) -رضيع كعب- على خطة يستدرجون بها كعبًا. وكان (محمد) من بدأ التنفيذ، فشكا إلى (كعب) جوار رسول الله متوددًا: "إن هذا الرجل قد سألنا صدقة وإنه قد عنّانا"، ويبدو أن ثبات (محمد) وهدوءه أقنعا (كعبًا) الذي اقتنص فرصة شكوى (محمد) من رسول الله فقال له: "والله لتَمُلَّنّه".

حينها عرف (محمد) أن (كعبًا) وقع في الشَرَك فاستمر في خطته متظاهرًا أن اتباعهم للرسول أوقعهم في ورطة لا يستطيعون الفكاك منها، فقال مطأطئًا رأسه: "فإنا قد اتبعناه، فلا نحب أن ندعه حتى ننظر إلى أي شيء يصير شأنه. وقد أردنا أن تُسلفنا وسْقًا أو وسقين"..
وكأي يهودي مُرابٍ متمرِّسٍ وافق كعبُ مقابلَ أن يُرهنوه نساءهم، ولكنّ (محمد بن مسلمة) استقبح ذلك فرد عليه وقد ضاقت حدقتاه وقطّب حاجبيه: "كيف نُرهنك نساءنا وأنت أجملُ العرب؟"، فقال كعب: "فتُرهنوني أبناءكم." فرد عليه (محمد): "كيف نُرهنك أبناءنا فيُسَبُّ أحدهم فيقال: رُهن بوسْق أو وسقين. هذا عار علينا، ولكن نرهنك اللأْمَة" [أي: السلاح]... وكان هذا عين ما يرمي إليه (ابن مسلمة)، كان يريد أن يدخل على (كعب) بالسلاح دون أن يثير ذلك ريبة (كعب).

وصنع (أبو نائلة) مثل ما صنع (محمد) فقال: "كان قدوم الرجل علينا بلاء" ثم اعتدل في جِلسته ليفسر نادمًا ماهية البلاء الذي وقعوا فيه بعد أن استقبلوا (محمد بن عبدالله) وأصحابَه: "عادتْنا العرب، ورمتنا عن قوس واحدة، وقطَعت عنا السبل حتى ضاع العيال، وجهدت الأنفس، وأصبحنا قد جهدنا، وجهد عيالنا".
ثم اتفق مع (كعب) أن يزوره ثانية مع أصحاب له يبيعون له سلاحًا عندهم.

أما (كعب) فقد طار قلبه فرحًا بنجاح محاولاتــه في الدعوة إلى حرب (محمد)، وبدا أنّ نبتة هجائه للنبي قد أثمرت وقريبًا يتخلص منه ومن الفقراء الذين جاءوا معه من مكة.



لم ينم (ابن مسلمة) ورفاقه تلك الليلة التي أضاء البدر المكتمل سماءها. كما لم يمنع نجاح الجزء الأول من الخطة قلب (ابن مسلمة) من الخوف، لم يكن يخشى القتل بقدر ما خشي عدم تمكنه من إيفاء عهده للرسول حين قال له: "أنا يا رسول الله". ولكنّ قلبه عاد فاطمأن حين تذكّر دعاء الرسول -صلى الله عليه وسلم- لهم: "انطلقوا على اسم الله، اللهم أعنهم".

انطلق الرجال تحوطهم الدعوات حتى انتهوا إلى حصن (كعب بن الأشرف) وهتف به (أبو نائلة)، فأسرع ليلبي النداء ونهض عن فراشه الوثير. إلا أن امرأة كعب بفراسة النساء حذّرته: "أسمع صوتًا كأنه يقطر منه الدم".. ولكن بدا أن الخُطة قد أَحكمت وِثاقَها حول رقبة (كعب) الذي استبعد احتمال الخديعة من رأسه كما حاول استبعادها من رأس عروسه مهوِّنًا: "إنما هو أخي محمد بن مسلمة، ورضيعي أبو نائلة." ثم رفع يده عاليًا نحو السماء بأنَفةِ رجلٍ نصفِ عربي: "إن الكريم لو دُعي إلى طعنه أجاب".

ونزل (كعب) إلى (أخيه) و(رضيعه) وهو لا يدري أنه نزل إلى حتفه..



دار الحديث بين الثلاثة (كعب) و(أبي نائلة) و(ابن مسلمة) والأول لا يشك في صاحبيه، قد أضفى ضوء القمر على حديثهم صفاءً وهدوءًا، في حين أخفى وجهُ (ابن مسلمة) الهادئ قلبًا يغلي كالمرجل يترقّب اللحظة التي اتفق عليها مع صاحبه.

ساقهم الحديث بعيدًا عن الحصن، وكان (كعب) صاحبَ الصوت الأعلى بين الثلاثة، مزهوًّا بنفسه، يفخر أنّ حرصَه لم يوقعه مثلهم في ورطة مع (محمد بن عبد الله).



وحين تحدث (أبو نائلة) لم يزد إلا أن نفخ كير (كعب) مثنيًا على عطره: "ما رأيت كالليلة طيبًا أعطر". زها (كعب) بما سمع وفسّر ذلك بأن عنده أعطر نساء العرب. وهنا استأذن (أبو نائلة): أتأذن لي أن أشم رأسك؟ فأذن له (كعب) فمد يده في رأسه وشمه وأشم أصحابه. ثم مشى ساعةَ دارَ الحديثُ بينهم كالكرة بين أقدام الصبيان، وعاد (أبو نائلة) يستأذنه في أن يشم رأسه. تأكد حينها لدى (كعب) أن عطره الغالي استهوى رضيعه فأحنى رأسه ثانية ليتيح له أن يشمه ويتيح لنفسه لحظة فخر غالية.

وحين كرر (أبو نائلة) طلبه ثالثَ مرة لم يشك (كعب) للحظة أن الرجل سيتمكن منه ثم يرفع صوته مناديًا أصحابه: "دونكم عدو الله فاقتلوه".. صيحةُ كانت كافيةً ليخرج ثلاثة رجالُ من مخبأٍ كمنوا فيه ثم تختلف عليه أسيافُهم ويعاجله (محمد بن مسلمة) بضربة معول أرْدته قتيلًا، صاح عدو الله لأجلها صيحةً عالية أيقظت أهل الحصن.



ارتفع صوت المفرزة المسلمة بالتكبير حين اقتربوا من بقيع الغرقد حيث كان ينتظرهم رسول الله الذي أشرق وجهه مكبرًا مع تكبيرهم وهنأهم قائلًا: "أفلحت الوجوه". فردوا عليه: "ووجهَك يا رسولَ الله". ورموا رأس الطاغية بين يديه، فحمد الله على قتله..

اطمأن قلب (ابن مسلمة) أخيرًا بعد أن وفى بعهد لرسول الله، وعلم أن اليهود لن يردوا على مقتل طاغيتهم، فما أيسر أن يدب الرعب في قلوبهم. علم اليهود أنّ الرسول -صلى الله عليه وسلم- "لن يتوانى عن استخدام القوة حين يرى أن النصح لا يجدي نفعًا لمن يريد العبث بالأمن وإثارة الاضطرابات.. ولزموا الهدوء.. واستكانوا، وأسرعت الأفاعي إلى جحورها تختبئ فيها"[3].

كان الرسول على راحلته و(محمد بن مسلمة) آخذ بزمامها يطوف بالبيت بعد فتح مكة وفي يده قوس يطعن به الأصنام حول الكعبة فتتساقط على وجوهها وهو -صلى الله عليه وسلم- يرتّل آيات من القرآن {وقل جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقًا} [الإسراء:18]. وقد اختلطت مشاعر الفرح والثناء على الله بالتواضع والافتقار إلى فضله سبحانه في قلب (محمد) الذي أحكم يده بقوة على زمام راحلة الرسول بعد أن لفّها عدة مرات حول معصمه، وتذكّر حينها عندما كان قريبًا من النبي في غزوة أحد حين أُفرد النبي في مجموعة صغيرة من أصحابه بعد تبدد المسلمين في الموقف، وها هو الرسول يُحيطه أصحابُه من المهاجرين والأنصار ترتفع أصواتُهم بالتلبية وقريش قد وقفت صفوفًا تنتظر ما يَصنع بها رسول الله.

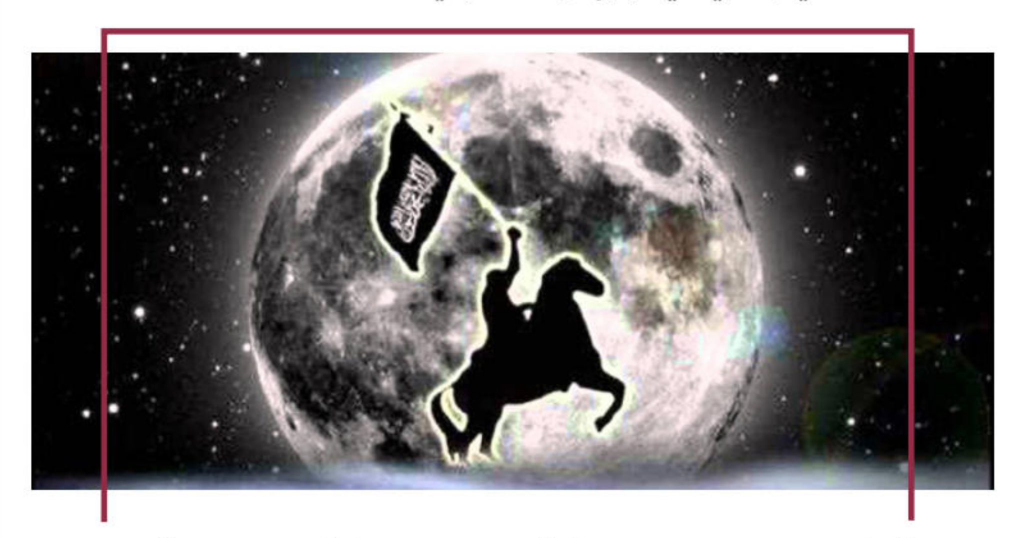
وفي غمرة الفرحة بنصر الله والفتح.. تذكر محمد كلمة الرسول له: "يا محمد، ستكون فُرقةٌ وفتنة واختلاف، فاكسر سيفك، واقطع وَتَرَك، واجلس في بيتك"[٤].

ونظر إلى سيفه متعجبًا، لا أحسب إلا أن الفتنة قد انطفأ أَوَارُها، فتح الله مكة على رسوله، ودارت الدوائر على اليهود والأعراب.. ثم عاد وقال: "الله ورسوله أعلم، اللهم بصرني بالفتنة لأجُلَّ سيف رسول الله من الوقوع فيها".

(٣) الرحيق المختوم، ص ٣٠٧.

(٤) سير أعلام النبلاء، للذهبي.

أقبل الخليفة عمر بن الخطاب على مجلس بني حارثة، وهناك التقى بـ(محمد بن مسلمة) فسأله كعادته في محاسبة نفسه: كيف تراني؟ فرد عليه محمد: أراك كما أُحب، وكما يُحب من يُحب لك الخير، قويًا على جمع المال، عفيفًا عنه، عدلًا في قسمه، ولو مِلتَ لعدلناك كما يُعدل السهمُ في الثقاف. فاستبشر عمر بجواب (محمد) وقال: "الحمد لله، الذي جعلني في قوم إذا مِلتُ عدلوني"[٥].



ولأن (محمد بن مسلمة) كان حريصًا أن يضع سيفه حيث أمر رسول الله، ولأن حذيفة بن اليمان ذكر عنه أنه لا تضره الفتنة، فقد اعتزل (محمد) الفتنة ولم يشارك في وقعة الجمل ولا صفّين، واتخذ سيفًا من خشب، وأعلن بصراحة: "ما أريد أن يشتمل عليّ شيء من أمصاركم حتى تنجلي عما انجلت"[٦].

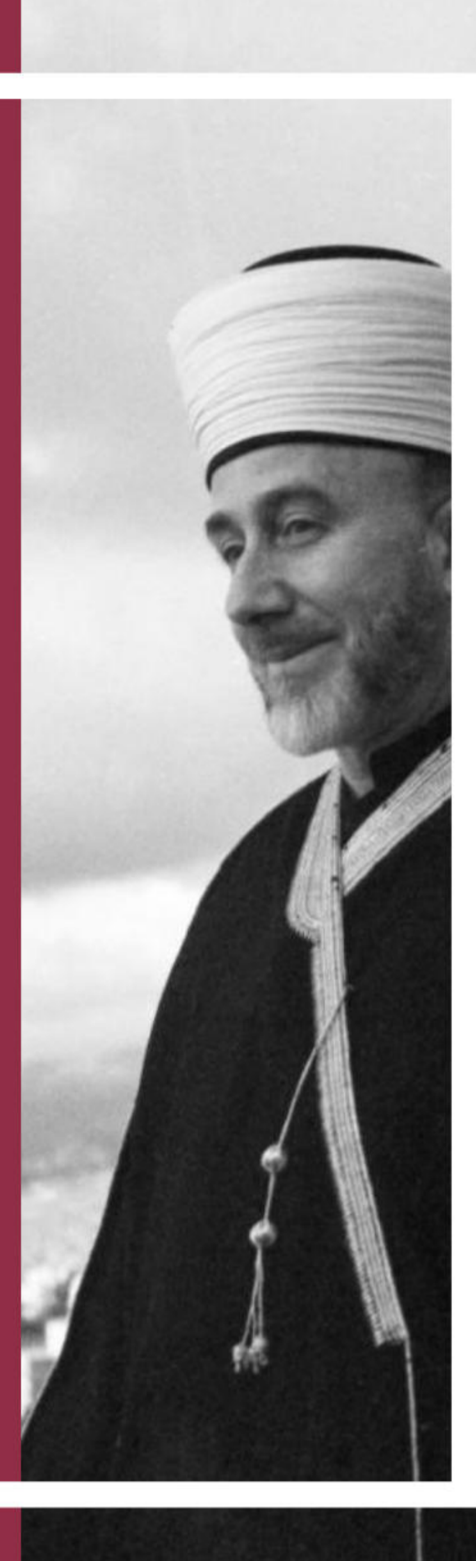
ويبدو أن اعتزال (محمد بن مسلمة) لم يرق لأحد الأشقياء ناعقي الفتنة، فاقتحم عليه داره وقتله ليموت شهيدًا -رضي الله عنه وأرضاه- بعد سبعة وسبعين عامًا قضى جُلَّها حارسًا لرسول الله -صلى الله عليه وسلم-.

(٥) المصدر السابق.

(٦) صححه الألباني.

سلسلـــة كتب مختصرة (الكتـاب الرابـع)

مذكـرات الحـاج محمـد أمـين الحـسينـي (٥)



الفصل الثالث

وقائع كفاح الشعب الفلسطيني وجهاده

"كنت على يقين من أن القضية الفلسطينية لا تحل إلا بالقوة المسلحة، ولذلك صرفت معظم جهدي لبسط هذه الحقيقة لإخواني وأبنائي الفلسطينيين، ولزعماء العالم العربي والإسلامي، ومن ثم الحصول على السلاح من أي مكان، رغم الظرف الدقيق الذي كانت تجتازه قضية فلسطين أثر انتصار أمريكا وبريطانيا في الحرب، وضلوعها مع الصهيونية، واندفاعها في دعمها."

اتجهت الهيئة العربية العليا لفلسطين في تجنيد الفلسطينيين وتدريبهم وتسليحهم، ثم في تكوين جيش فلسطيني، وقدمت بذلك مقترحات مع ميزانية كاملة، ولو تمت الموافقة على ذلك لأمكنهم من تخفيف آثار كارثة ٤٨ ، ثم لأمكنهم إنقاذ الشطر المحتل من فلسطين قبل أن يثبت العدو أقدامه في الأراضي المحتلة، ولاستطاعوا دحر الأعداء.

وفــي عام ١٩٥٠ أرسلت الهيئة العربية العليا لفلسطين مذكرة إلى الحكومة المصرية أشارت فيها إلى الخطر اليهودي على مصر عامة وعلى سيناء خاصة.

وشبه جزيرة سيناء هي مطمح أبصارهم وهم عاملون بجد وقوة لانتزاعها من مصر؛ لأن لهم فيها ذكريات تاريخية؛ ففيها نزلت التوراة والألواح، وتاه فيها بنو إسرائيل ٤٠ سنة، بالإضافة إلى أن لسيناء موقعًا جغرافيًّا واستراتيجيًّا وعسكريًّا فريدًا، وهي فوق كل هذا غنية بالمعادن والعناصر الثمينة كاليورانيوم والبترول.

ولقد عمدت الحكومة البريطانية سنة ١٩٠٦ إلى إرسال بعثة علمية فنية إلى سيناء لدراسة حالة هذه المنطقة وطبيعتها، وذلك تمهيدًا لتوطين أكبر عدد ممكن من اليهود فيها، فالخطر على مصر وسيناء خصوصًا هو خطر حقيقي، وليس وهميًّا، ولعله أقرب كثيرًا مما يظنه بعض الغافلين أو المتغافلين.

وفيما كانت عيون الصهيونيين والمستعمرين إلى سيناء ونفوسهم منصرفة إليها بكل ما تنطوي عليه من أمانٍ وأطماع، كان بعض ولاة الأمور في الأقطار العربية لا يقيمون لها وزنًا حتى إن حسين سري باشا قال عنها أثناء توليه رئاسة الوزراء عام ١٩٤٩ وما قيمة سيناء، إنها ليست إلا رمالاً، ولا فائدة منها!!

حدث هذا عندما تقدم الصهيونيون بمذكرة بواسطة إحدى الدول الكبرى يطالبون فيها بتخلي مصر عن قطاع غزة، وتسليمه إليهم، ونحو ذلك من المطالب الصهيونية الوقحة.

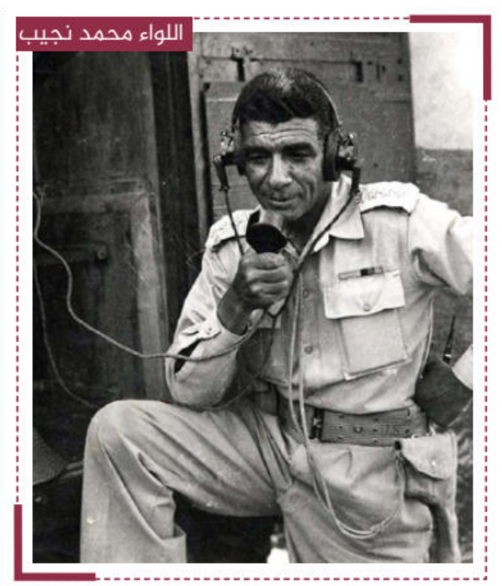
ولما كان موقف حسين سري غاية في الضعف والميل للاستسلام فقد طلب من السيد عبد المنعم مصطفى الذي كان يتولى منصب الإدارة السياسية أن يقدم إليه تقريرًا يمهد للاستجابة إلى مطالب الصهيونيين، لكن السيد عبد المنعم المعروف بوطنيته امتنع عن ذلك، وبين لحسين سري الخطأ والخطورة في ذلك، فرد عليه حسين سري بلهجة الآمر وعنجهية المسيطر: إنك موظف، وعليك أن تكتب ما أطلب منك، فرد على حسين سري بالرفض وقدم استقالته، فعندئذ تراجع حسين سري، وخشي سوء العاقبة وذيوع الخبر، فصمت ولم يعد إلى مراجعته.



وظلت المذكرة تنتظر الرد إلى أن تشكلت حكومة مصرية ائتلافية برئاسة مصطفى النحاس باشا، وتولى وزارة الخارجية فيها الدكتور محمد صلاح الدين، ولما عرضت عليه المذكرة مجددًا وقف موقف الرجل الشريف الحازم، وأجاب على تلميح اليهود بالقوة للحصول على مطالبهم: (أنا على استعداد لصدهم بالقوة ونار حرب مقدسة يخوضها العرب والمسلمون جميعًا)، فعندئذ طويت المذكرة اليهودية.

وفي عام ١٩٥١ قدمت الهيئة العربية مذكرة لمصطفى النحاس باشا تناولت مختلف الشئون الفلسطينية والتنبيه على مطامع اليهود في سيناء.

وكذلك في عام ١٩٥٣ قدمت الهيئة مذكرة إلى الدول العربية تبين فيها مطامع اليهود وأخطارهم.


اللواء محمد نجيب

ثم بعد أيام قلائل من قيام الثورة المصرية ١٩٥٢ قابلت اللواء محمد نجيب القائد العام للقوات المسلحة المصرية، وقدمت له مذكرة عن الأخطار التي تهدد ذلك القطاع، كما تهدد مصر من المطامع اليهودية، وقدمت له عدة مقترحات من تجنيد قوة فلسطينية للدفاع عن أهل غزة؛ منعًا لسقوطها في أيدي الأعداء، وتحدثت معه بشأنها، وأقيمت موانع في سبيل تشكيل تلك القوة، فتقدمت بمذكرة أخرى إلى اللواء محمد نجيب، وقد كان يومئذ رئيس الحكومة المصرية.

وقد ظللنا مثابرين على مطالبة الدول العربية ومجلس جامعتها ومصر خاصة بتجنيد الفلسطينيين، ولاسيما على أثر الهجوم اليهودي الغادر على مخيمات الفلسطينيين في غزة، وسقوط عدد كبير منهم، فعندئذ بادرت بتقديم مذكرتين إلى اللواء عبد الحكيم عامر القائد العام للقوات المسلحة، وبمناسبة العدوان الوحشي على القرى العربية في ضواحي القدس أبرقنا إلى رؤساء الدول العربية سنة ١٩٥٣ نبين لهم فضاحة العدوان ووحشية هجوم اليهود.

أيضًا في عام ١٩٥٢ قابلت كمال الدين حسين، وقدمت له المذكرة آنفة الذكر، وبحثت معه مسألة تمكين الفلسطينيين من منطقة غزة من التدريب والاستعداد.

"فأجابني بأنه تلقى تقارير من المنطقة تفيد بأن المبادئ الهدامة قد فشت بين الفلسطينيين، وأنه يخشى من نتائج ذلك، ثم قال: ألا ترى أن تقوية مصر تكون أنفع وأجدى من هده المحاولات؟

فأكدت له أن ما يشاع عن الفلسطينيين غير صحيح، وأن الأعداء هم الذين يذيعون عنهم هذه الادعاءات، ويحاولون تشويه سمعتهم بمختلف التهم؛ لإبعادهم عن معركة قضيتهم، لما يعرفون من خطرهم على الصهيونية."

ثم تلا ذلك تقديم المذكرة إلى السيد حسين الشافعي وزير الحربية والبحرية عام ١٩٤٥.

وفي حديث لي مع اللواء عبد الحكيم عامر عن مصير مذكرتين كنت قد أرسلتهما إليه الأولى خاصة بالأخطار العسكرية التي ينطوي عليها مشروع جونستون، والأخرى خاصة بطلب تجنيد الفلسطينيين وتسليحهم وتدريبهم، فأجابني بأنه اهتم كل الاهتمام لما اشتملت عليه المذكرة الأولى من الأخطار العسكرية، وأنهم درسوا ذلك المشروع الدراسة الوافية.


اللواء عبدالحكيم عامر

أما بشأن تجنيد الفلسطينيين فقال: إنني أحب أن أؤكد أن المتطوعين الفلسطينيين قد أبدوا في المعارك الأخيرة بسالة ورجولة كانت موضع إعجابنا وتقديرنا، ونحن مهتمون جدًّا بتجنيد أكبر عدد ممكن من شبان فلسطين، وقد تم إلى الآن تجنيد لواء كامل يناهز ثلاثة آلاف، وسيزداد العدد باستمرار.

وعلى أثر هذه المساعي المتوالية واستمرار اليهود في عدوانهم على منطقة غزة، استجابت الحكومة المصرية ففتحت باب التطوع أمام الفلسطينيين، وتم تجنيد لواء منهم تحت قيادة الجيش المصري، ولما كنت أتوق إلى التوسع في تجنيد الفلسطينيين، ولاسيما اللاجئين لتحويل الصالحين منهم إلى مجاهدين، فقد قدمت كتابًا إلى الرئيس جمال عبد الناصر ١٩٥٦ أرجو فيه التوسيع في تجنيد الفلسطينيين، وأن تطبق الحكومة المصرية عليهم أنظمة التجنيد والقوانين العسكرية.

إن ما عرفه الإنجليز واليهود وما خبروه من بسالة الفلسطينيين وقوة روحهم الحرة، جعلهم يتخذون كافة الوسائل المباشرة وغير المباشرة لإبعادهم عن ميادين القتال، وقد نجح الإنجليز في ذلك، وعملوا على تعديل خطة الدول العربية، وحملوا بعضها على إدخال جيوشها إلى فلسطين، وعلى إبعاد المجاهدين الفلسطينيين عن ميدان معركتهم، وكانت خطة الدول العربية التي تقررت في اجتماع عالية لبنان ١٩٤٧ أن يكون المعول في حرب فلسطين على أبنائها، وأن لا تدخل الجيوش العربية النظامية

إلى فلسطين، لكن حين شعرت برغبة بعض الأشخاص الرسميين من العرب إدخال الجيوش العربية إلى فلسطين توجست خيفة، لكن الضغط الغربي كان أقوى، واتخذت الجامعة العربية قرارات منها قطع المساعدة المالية عن المجاهدين في فلسطين، وأوقفت توزيع الأسلحة، وصادرت الأسلحة الوفيرة التي دفع ثمنها أهل لبنان عام 7491 لتسليح المجاهدين، وعبثًا حاول الشهيد عبد القادر الحسيني الحصول على أي سلاح لتحرير جبل القسطل، فتم رفض طلبه بحجة أنهم ليسوا جنودًا نظاميين.



وقد غادر الشهيد دمشق في ٦ نيسان وهاجم جبل القسطل في ٨ نيسان وحرره من أيدي اليهود، واستشهد -رحمه الله- في تلك المعركة.

كان الموقف حرجًا عندما عارضت الهيئة العربية العليا دخول الجيوش العربية واستبداد الجامعة العربية بالقضية الفلسطينية، وانبثقت دعاية قوية بين الفلسطينيين بأن جيوش الدول العربية السبع ستقضي على الصهيونيين وتنقذ فلسطين دون أن تكبد أهلها خسائر في الأموال والأنفس، وقد لقيت هذه الدعاية المضللة آذانًا عند كثير من الفلسطينيين.

ومن الإنصاف أن نورد هنا أن المرحوم الملك عبد العزيز آل سعود، والمرحوم النقراشي لم يكونا راغبين في دخول الجيوش العربية فلسطين، فالنقراشي كان يرى أن مصر لا تستطيع دخول الحرب والجيش الإنجليزي جاثم على قناة السويس، لكن الملك فاروق استجاب لرؤساء وزارات الدول العربية الذين قابلوه وأقنعوه بذلك.

ولقد كان الضغط الاستعماري هو العامل الأكبر في تلك الخطة في إبعاد الفلسطينيين عن المعركة؛ خشية من تفاقم حرب العصابات والفداء التي هي العلاج الوحيد لداء الظلم والعدوان ورد كيد الاستعمار في نحره.

كما كان من أكبر الأخطاء التي ارتكبتها الجهات العربية المسؤولة والتي لا تقل خطرًا عن وعد بلفور نفسه أنها منحت الأعداء الصهيونيين فرصة فريدة استمرت عشرين سنة كاملة من المهادنة والمسالمة، اغتنمها أولئك الأعداء لتثبيت أركان دولتهم، واستكمال استعداداتهم الحربية.

لقد كان معظم العرب يستخف بالمؤامرة الصهيونية والمطامع اليهودية، ولا يقيم لها وزنًا، وكنت أرى ابتسامة الاستخفاف والاستغراب على أفواه كثير من زعماء العرب وساستهم وكبرائهم عندما كنت أحدثهم عن الأخطار اليهودة المقبلة، حتى إن بعضهم صارحني بقوله: إنه لا يعقل أن تقدم بريطانيا على المغامرة بعلاقاتها والتفريط في مصالحها الواسعة في العالمين العربي والإسلامي استرضاء لليهود واستخفافًا بالعرب والمسلمين، وإنما هي تخادع اليهود وتماطلهم!!

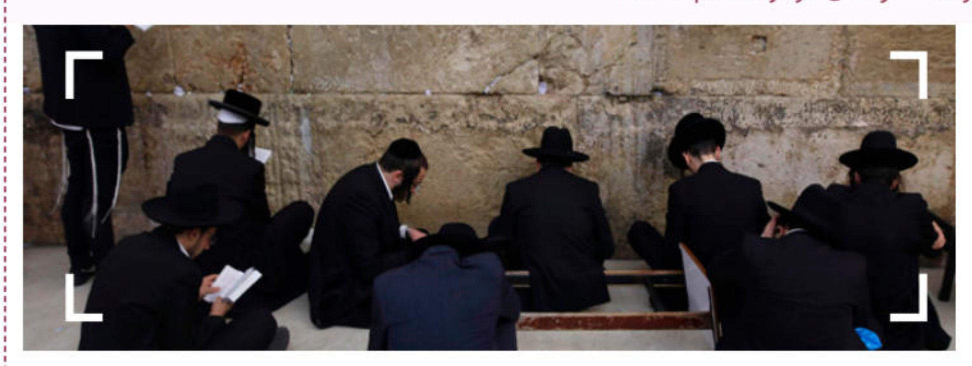
ومن الخطط التي أضرت بالعرب ضررًا فادحًا، الخطة الشيطانية التي اتبعها الأعداء في بلبلة الأفكار وتشتيت الآراء في البلاد العربية، وبث روح الخصومات الحزبية، والاختلافات بين عناصر الأمة، والحرب النفسية التي قام بها رجال المخابرات الأجنبية وعملاء الصهيونية، وأوحوا إلى ضعفاء النفوس ومرضى القلوب من العرب بأن لا سبيل إلى التغلب على الأعداء، ولا وسيلة لصد عدوانهم؛ لأنهم أعلم بالتكنولوجيا، ويجب علينا أن نتريث مدة جيلين أو ثلاثة أجيال إلى أن نبلغ مبلغهم من التكنولوجيا، وهذا كلام سمعته بنفسي ودحضته قائلاً: أين نسبة التكنولوجيا بين الجزائر وفرنسا، أو بين فيتنام وأمريكا.

فاليهود المتدينون انخرطوا في منظمات الهاجانا والأرغون تسفاي ليومي والبالماخ وغيرها من المنظمات المسلحة اليهودية، وأن الذين أنزلوا الضربة الوحشية في دير ياسين وبقروا بطون النساء الحوامل هم من اليهود المتدينين من جماعة أغودات إسرائيل.

إن ارتباط المسلمين الوثيق بفلسطين هو أقوى سلاح، وأنفذ سهم في أيدي المجاهدين، والأعداء يعرفون ذلك، ويبذلون قصارى جهدهم لإبعاد المسلمين عن قضية فلسطين.

إن الأعداء من يهود ومستعمرين وبعض المخدوعين من العرب يحاولون بكل جهودهم إبعاد القضية الفلسطينية عن الإسلام، ويبثون دعايات مسمومة مضللة.

إن اليهود منذ عهد بعيد يتبعون خطة مبيتة لاغتصاب بلادنا، وتدمير مقدساتنا، ولقد كانت القدس محرمة عليهم بنص العهدة العمرية التي أعطاها عمر بن الخطاب لأهل (إيلياء) القدس، وظلت تلك العهدة مفعلة طوال عهود الخلافة الإسلامية، ولم تنقض إلا في عهد محمد علي وحربه مع الدولة العثمانية، فقد استطاع بعض كبار اليهود الحصول على تصريح لعشر عائلات يهودية بالإقامة هناك، وكانوا يزورون الحائط الغربي لسور المسجد الأقصى ويبكون خلفه، فأنكر أهل القدس وتقدموا بشكواهم لمحمد علي فأمر اليهود بعدم رفع الصوت بالبكاء والاقتصار على الوقوف أمام الحائط.



فهذه العائلات اليهودية العشر كانت أصل الداء وأساس البلاء؛ لأنها بدء هجرة اليهود إلى القدس (ومعظم النار من مستصغر الشرر).

إن أقل تسامح مع العدو الطامع يؤدي إلى الضرر البالغ والخسارة الكبيرة، ولطالما كنت عرضة للوم والنعت بالشدة والتطرف لأنني لم أكن أقبل التفريط للصهيونيين في أي حق من حقوق الأمة مهما كان ضئيلاً؛ لأن التساهل يؤدي إلى التفريط في الأمانة، وإهدار حق الأمة.

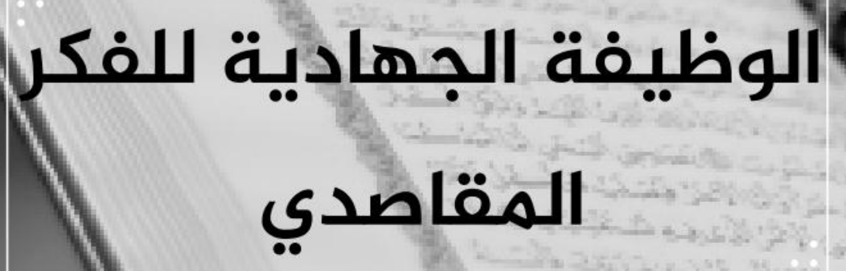
وَجَاهِدْهُم بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا

سورة الفرقان الأية (٥٢)



كلمة حق | العدد العاشر ، مايو ٢٠١٨

www.klmtuhaq.blog



الوظيفة الجهادية للفكر المقاصدي

د. وصفي عاشور أبو زيد

لمقاصد الشريعة خصوصا والفكر المقاصدي عموما وظائف كثيرة، هذه الوظائف والفوائد تتوزع على المجالات التي تُعمل المقاصد فيها عملَها؛ فهي أهم ما يهتم به الفقيه والمفتي والمجتهد، إذ لا يمكن للفقيه أو المفتي أن ينظر في النصوص أو يفهمها أو في الوقائع والمستجدات والنوازل، ولا أن يُقنّن الأحكام، إلا في ضوء المقاصد، فالمظلة المقاصدية هي الضمان الأكبر والأمان الأهم الذي يحمي المجتهد والمفتي -إذا احتمى به- من الانحراف، أو الوقوع في الخطأ.

كما أنها تقي العالم الفقيه والأصولي من الوقوع في البدع، وبها يتجدد الفقه ويتطور، والإمام الشاطبي يرى أن أسباب الابتداع مردها إلى الجهل بمقاصد الشريعة، والعلامة محمد الطاهر ابن عاشور يرى أن جمود الفقه مرده إلى إهمال الفقهاء للمقاصد.

وللـمقاصد وظائف في العلوم الإسلامية (القرآن وعلومه، والسنة وعلومها، والفقه وأصوله)، ولها وظائف وفوائد في العلوم الإنسانية (علوم النفس والتربية والاجتماع والاقتصاد والعمران وغير ذلك)، حيث تقوم بضبطها وتوجيهها وترشيدها وتجديدها وتطويرها، وتقويم حالها، وتقييم مسيرتها، وتنتهج بها منهج النفع والتأثير والحيوية والتجدد.



لكن هناك وظيفة أخرى تقوم بها المقاصد والفكر المقاصدي، وهي الوظيفة الجهادية، تلك الوظيفة التي تشمل الجهاد بمعناه الواسع، وتشمل الجهاد بمعناه القتالي كذلك.

لقد ارتبط الفكر المقاصدي بفترات تجديد وتطوير، وبأزمنة الرغبة في رد الشبهات والحفاظ على الهوية، وبعصور احتلال وقتال ومقاومة، وفي كل هذه العصور والأزمنة كان الفقهاء وأعلام الأمة يستنجدون بفكر المقاصد وفكرها، ويفكرون في ظلالها؛ حيث لا تغني النصوص الجزئية وحدها، فيستلهمون أفق المقاصد الرحيب الذي يُسعف الفقيه والمفتي حين لا يسعفه التفكير الجزئي ولا النص الجزئي وحده دون استدعاء أنواع الفقه الحضاري من فقه للواقع وموازنات وأولويات ومآلات، وعلى رأس هذه الأنواع فقه المقاصد الذي يُعدّ أبًا لكل هذه الألوان من الفقه.

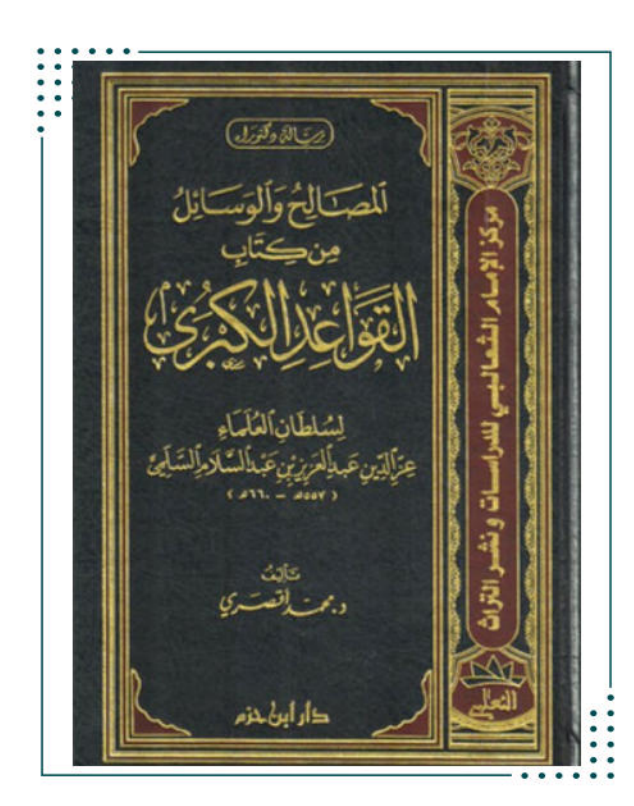
ارتبط فقه المقاصد بعمر بن الخطاب -رضي الله عنه- الذي استدعى هذا الفكر حين اتسعت رقعة الدولة، وترامت مساحاتها بالفتوحات، فلم يكن أمامه بد في ملء هذه الفراغات وسد هذه الحاجات من أن يحتمي بالفقه المصلحي المقاصدي المستثمَر من النصوص الشرعية عبر مسالكه المقررة عند الأصوليين.

ارتبط بمجدد من أعظم مجددي الإسلام وهو عمر بن عبد العزيز، حينما استنجد بهذا الفقه الحضاري الذي جمع به الأمة، ونفى به الفرقة، وجدد به الملة والأمة.

ارتبط بالإمام الشافعي الذي جمع به قواعد الاستنباط، ووضع في ضوئه أصولا للفقه والنظر الشرعي، وأعمله في الأمثلة التطبيقية التي أوردها في كتابه الرائد (الرسالة)، وحفظ فهم النص الشرعي من الغلو أو التقصير، فكما حفظ الله تعالى النص الشرعي من التحريف والتبديل، فكذلك حفظ طرق ومناهج فهم النص الشرعي عبر أصول الفقه ومقاصد الشريعة.

كانت الوظيفة الجهادية للمقاصد ظاهرة كل الظهور وواضحة كل الوضوح في سيرة سلطان العلماء العز بن عبد السلام ومسيرته، سواء مسيرته الحركية والدعوية أم مسيرته العلمية والتصنيفية ..

أما مسيرته الحركية والدعوية -ولا يمكن فهم علم العالم وفكره إلا بالوقوف على سياق عصره السياسي والاجتماعي- فقد جاء في عصر اضطرابات سياسية، وعصر تغيير الولاء للأمة وتحول بعض حكام عصره للبراء من المؤمنين وولاية أعداء الدين، فوقف العز بن عبد السلام مستلهما هذا الفقه العظيم، وقال مقولاته التي سجلها التاريخ ضد هذا التغير الخطير والشر المستطير في الولاء العقدي للأمة، ومنع الدعاء لهؤلاء الحكام، وأفتى بحرمة تصرفاتهم، وعدم جواز طاعتهم ولا الدخول في سلطانهم، كما أفتى ضد حكام مصر الذين كانوا يريدون فرض مكوس على الشعب وهم يتمتعون بالذهب والمال، فمنع فرض هذه الضرائب قبل أن يتساوى الحكام مع المحكومين، ولاقى في سبيل شجاعته وجُرأته في الحق ما لاقى: نفيًا، وتضييقا، وعداء.



وأما مسيرته العلمية فقد صنف كتابه (القواعد الكبرى) الذي يُعدّ كتابا فريدا في بابه، فلم يؤلف قبله مثله، ولا بعده مثله، وهو بهذا الكتاب وغيره يعدّ -في نظري- إمام المقاصد الأول، وهذا الكتاب أعتدّه كتاب العصر للمختصين بعلوم الشريعة وعلوم السياسة وعلوم الإنسان على السواء، وتلميذه القرافي حمل هذا الفكر من بعده، وأعمله في إنتاجه الفقهي والأصولي.

اتضح الاستنجاد بالفكر المقاصدي في المسيرة العلمية والدعوية لشيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه الأنجب ابن قيم الجوزية، اللذين كان عصرهما عصر احتلال واستلاب للأمة من الصليبيين، واستَخدم ابن تيمية فقه الموازنات وعقد له بابا في مجموع الفتاوى أسماه (تعارض الحسنات والسئيات)، وتلمس روح هذا الفقه في مجمل فتاويه وآرائه، وهذه النزعة المصلحية المقاصدية بارزة بشدة في فقه تلميذه ابن القيم الذي اهتم بشكل بالغ بالبحث عن حكمة التشريع وفلسفته فيما يتناوله من قضايا ويطرحه من أفكار.

واعتمد هذا الفكرَ الروادُ من المصلحين، والربانيين من العلماء المجاهدين حتى جاء ما سمي "عصر النهضة" العلمية والفكرية، فأحيا هذا الفكر الإمامُ المجدد محمد عبده -الذي كان في عصر الاستعمار- والذي نفض التراب عن كتاب (الموافقات) للشاطبي -باني عمارة المقاصد- وأمر تلاميذه أن يهتموا به: مُدارسة وتدريسا وتحقيقا ونشرًا، فقام بذلك تلامذته: محمد رشيد رضا، ومحمد الخضري، والطاهر ابن عاشور، وغيرهم،

وقد كان هؤلاء التلاميذ مقاصديين في فكرهم وفي مسيرتهم الدعوية، والمُطالِع لتفسير المنار وفكر رشيد رضا عامة يجد هذا المنحى أضوأ من الشمس، وأبين من فلق الصبح، وأوضح من غَرَّة النهار.. وتجلت الوظيفة الجهادية للفكر المقاصدي لدى محمد عبده في الدعوة إلى التجديد والاجتهاد، والثورة على التقليد والجمود، ودعا إلى تطوير مناهج الأزهر وطرق التدريس فيه.



الإمامُ المجدد محمد عبده

أما العلامة محمد الطاهر ابن عاشور الذي ألف كتابه (مقاصد الشريعة الإسلامية) فقد كانت مسيرته الدعوية والعلمية متشربة لهذا الفكر ومتشبعة به، فهو الذي تصدى للحبيب بورقيبه حين أراد منع الصيام، وقال كلمته الشهيرة (صدق الله وكذب بورقيبه)، وفيما ألفه من كتب وطرحه من رؤًى في كتابه هذا وفي تفسيره وفي كتبه الأخرى يتضح اعتماده هذا الفكر منهجا ومنطلقا اتضاحا ملحوظا، حتى كان أول من دعا إلى تأسيس (علم مقاصد الشريعة الإسلامية).

وجاء بعده علال الفاسي، ذلك المفكر السياسي المجاهد، الذي واكب عصر استعمار المغرب، وكان سياسيا محنكا، ومفكرا مفلقا، وكاتبا مرموقا، فوظف هذا الفكر في مسيرته السياسية، وأعمله في مسيرته العلمية والفكرية، حتى ألف كتابه المشهور: (مقاصد الشريعة الإسلامية ومكارمها) الذي يمثل مع كتاب ابن عاشور مرحلة من مراحل التحول في الفكر المقاصدي ومقاصد الشريعة.

ثم انطلقت شرارة مقاصد الشريعة والفكر المقاصدي قبل أربعة عقود من اليوم في صورة رسائل علمية، ندوات ومؤتمرات ومناهج ومساقات وكتب ومؤلفات ومراكز وملتقيات وبرامج ومشروعات، حتى أضحى علما مستقلا له تاريخه ونشأته، وقواعده وفوائده، ومسالكه وضوابطه، وأعلامه ومصطلحاته وآثاره.

وقد كان من فضل الله -تعالى- أن تنشأ هذه الصحوة المقاصدية في ظل ما تمر به الأمة وقبل أن تبدأ هذا التحول الكبير -ليس الأمة فقط بل العالم كله- الذي يشهد ظواهر سياسية واجتماعية وفكرية كبرى، واحتلالات واقتتال وجهاد ومقاومة، ومثل هذه التحولات لا يليق بها إلا الاستنجاد بهذا الفقه الحضاري، وفقه المقاصد في القلب منه، فهو الفقه الذي يضبط الموازنات، ويوجه المآلات، ويقيّم التحالفات التي تتفق مع مقاصد الشرع وتحقق مصالح الناس، فهذه الفترة التي نحياها لا يمكن الاكتفاء فيها بالتفكير الجزئي الضيق، ولكن لابد من الرجوع والاحتماء بفقه المقاصد وما يتفرع عنه من أنواع في الفقه، فهذا الذي يُستلهم في المقاومة والتحرير والجهاد الشامل، وفي القلب منه الجهاد العسكري، لتحرير الأوطان وحفظ الأعراض واستبقاء الأرواح ..



فلتكن صحوة مقاصدية تقوم بوظيفتها في هذا العصر الذي يشبه عصورا كثيرة من قبل استُدعي فيها هذا الفكر: حفظا لهوية الأمة، ودَفْعا للشبهات عن العقيدة والشريعة، ومقاومة للغزاة المحتلين، وتمسكا بالجهاد للتحرير والتمكين، وهذا وحده هو القمين ببناء حضارة حقيقية تحقق للمسلمين الاتساق مع الشرع الشريف، وتضعهم في مكان الذُّؤابة من العالمين.

المقصد الجامع لغايات الجهاد

د. عطية عدلان



الحمد لله .. والصلاة والسلام على رسول الله .. وبعد ..

{حَتَّى لا تَكُونَ فِتْنَةُ}{وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ}.. هاتان الجملتان الْمُحْكَمَتان حَدَّدَتا - بإيجاز وإعجاز وإنجاز - الأهداف الواضحة التي تمثل المقصد الجامع من فريضة الجهاد في سبيل الله تعالى، كل جملة منهما ترسم شقاً من المقصد الواحد الجامع، وهو تحقيق سيادة الشريعة؛ هذه السيادة هي جوهر الألوهية وصُلْبُها، كما أَنَّ الخضوع لها هو جوهر العبودية ولُبُّها، وهذه السيادة لا تتحقق إلا بتحقيق الأمرين هذين: أَلَّا تكون فتنة، وأن يكونَ الدين لله، وقد ذكرهما الله تعالى - كغاية للجهاد ينتهي إليها - في سورتين من الكتاب العزيز، في البقرة: {وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ انْتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ} (البقرة ١٩٣) وفي الأنفال: {وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ فَإِنِ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ} (الأنفال٣٩).

والفتنة في - الأصل اللغويّ لها - هي الامتحان الصعب والابتلاء العسير، تقول: (فتن) الذهب يفتنه ... إذا أدخله النار لينظر ما جودته[1]، ولأنَّ (سيادة الشرك والكفر) فتنة للبشرية عامَّة ولأهل الإيمان خاصة؛ ورد تفسير الفتنة عن الصحابة والتابعين بأنَّها الشرك وبأنَّها الكفر[2]، وهم لا يقصدون حتماً أنَّ الغاية التي ينتهي إليها الجهاد هي زوال الكفر والشرك ذاته - وإن كان زوالهما مرجواً ومأمولاً - لأنَّهم أخذوا الجزية من أهل الكتاب وأقروهم على دينهم عملا بنص الكتاب، وإنَّما قصدوا بتفسيرهم هذا أنَّ الغاية التي ينتهي إليها الجهاد هي زوال فتنة الكفر والشرك؛ بزوال سيادتهما التي تمثل فتنة تمنع أن يكون الدين لله تعالى، وتجعل الدين الذي له السلطان في الأرض لآلهة شتى.



ومثل هذا يقال في تفسيرهم للجملة الثانية (ويكون الدين لله) فقد فسروها بأن يكون التوحيد خالصا لله، وأن يدخل الناس في (لا إله إلا الله)[3]، ودخول الناس في (لا إله إلا الله) يكون بأحد أمرين: إما بالإسلام وإمَّا بالخضوع والدينونة لشريعة الإسلام، بأن يدفعوا الجزية ويلتزموا الصغار، والصغار خضوعهم لقانون الإسلام العام؛ ويؤكد هذا التأويل ضرورة الجمع بين هاتين الآيتين المحكمتين وبين قوله تعالى في آية محكمة أخرى من سورة التوبة: (قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ)[التوبة: 92]، فالآيتان تمثلان الهدف الاستراتيجي، وآية التوبة تمثل الهدف الإجرائيّ الذي يصب في تحقيق الهدف الاستراتيجيّ.

(١) مختار الصحاح ٢٣٤

(٢) تفسير الطبري (م ٢ ج ٢ ص ٢٦٥).

(٣) تفسير ابن كثير (٢٩٨/٢).

ومما يؤكد ضرورة تأويل تفاسير السلف بما يوافق اللغة التي نزل بها القرآن الكريم هذه الآيات التي بشَّعَت الفتنة في سياق يعدد الممارسات التي تقع عند سيادة قوى الكفر والشرك: (يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا)[البقرة: ٢١٧]، (وَأَخْرِجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ)[البقرة: ١٩١].

ويترتب على هذا التحديد الدقيق عدة نتائج، أولها دخول باقي اهداف الجهاد وغاياته ضمن هذه الغاية الكبرى بالتبعية، مثل تلك الغايات المذكورة في سورة التوبة: {قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ ، وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ، أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ} [التوبة: ١٤ – ١٦]، ومثل غاية الدفع والدفاع المذكورة في أكثر من موضع من كتاب الله تعالى.

كما يترتب عليه فهم طبيعة العلاقة بين الدولة الإسلامية - حال القدرة والاختيار - والدول غير الإسلامية، فالأصل فيها ليس الحرب ولا السلم؛ لأنَّه لو كان الحرب الأصل لما ساغ توقف الجهاد بدفع الكفار للجزية، ولو كان السلم لأفضى إلى توقف الجهاد وتعطيله عن بلوغ غايته المنصوص عليها في محكم التنزيل، إنَّما الأصل هو سيادة الشريعة، فإذا تتحقق هذه السيادة بدخول البعض في الإسلام ودخول الآخرين في الطاعة لدولة الإسلام بدفع الجزية والتزام الصغار ينتهي الجهاد إلى غايته، فالصراع على السيادة والهيمنة، وكل ماعداهما من الغايات تابع وليس أصلياً.

والحقيقة أنَّ الخلاف حول مسألة الأصل في العلاقة بين الدولة الإسلامية وغيرها مسألة مفتعلة تحت ضغط الواقع الدوليّ المعاصر، وأنَّ الذين قالوا بأنَّ الأصل السلم أرادوا إيجاد مساحة في الفقه الإسلاميّ تحقق التكيف مع هذا الواقع، وأنَّ الذين قالوا بأنَّ الأصل الحرب استفزهم النتائج التي ترتب عليها القول بأنَّ الأصل السلم، وعلى رأسها حصر الجهاد الإسلاميّ في جهاد الدفع وحسب، وهي نتيجة غريبة غاية الغرابة عن الفقه الإسلاميّ؛ لأنّ جهاد الطلب فرض كفاية بإجماع العلماء، أمَّا جهاد الدفع فهو فرض عين»(٤).

(٤) راجع: تفسير القرطبي لقوله تعالى (كتب عليكم القتال) ٣٨/٣

ويترتب على ذلك أيضاً أن الجهاد لم يشرع لإهدار الأنفس؛ فالأصل أن الإنسان بنيان الربّ، وملعون من هدم بنيان الربّ بدون إذن منه ولا شرع؛ لذلك ترجح رأي جمهور العلماء القائلين بأنَّ موجب القتل ليس مجرد الكفر، وإنَّما هو انضمام الحرابة إلى الكفر، وفرقوا بين موجب القتال وموجب القتل، فموجب القتال هو فتنة الكفر والشرك، وموجب القتل الكفر مع الحرابة.

ويترتب على ذلك أيضاً ضرورة التقيُّد بغايات الجهاد؛ بما لا يخرج به عن مقتضيات الغاية النبيلة التي من أجلها شُرع؛ فلا يصح - بحال - أن يتلبس المجاهد بظلم أو تعدّ - بما أنّه مجاهد - فمنهج الله تعالى لا يحابي أحداً مهما كانت منزلته؛ لذلك وجدنا حِبَّ رسول الله وابنَ حِبِّه يتعرض من رسول الله صلى الله عليه وسلم لهذا التأنيب الشديد عندما تأول وقتل من نطق بالشهادتين: " يَا أُسَامَةُ، أَقَتَلْتَهُ بَعْدَ مَا قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ؟ " قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنَّمَا كَانَ مُتَعَوِّذًا مِنَ الْقَتْلِ. فَكَرَّرَهَا عَلَيَّ حَتَّى تَمَنَّيْتُ أَنِّي لَمْ أَكُنْ أَسْلَمْتُ إِلَّا يَوْمَئِذٍ" [٥]، ونزلت: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوا إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا } [النساء: ٩٤] ، واللافت للنظر بشدّة تلك اللفتة القرآنية الرحيمة العادلة: " كذلك كنتم من قبل فمن الله عليكم فتبينوا " أي تذكروا أنكم كنتم من قبل مثل هؤلاء الذين تسارعون إلى قتلهم إذا ظفرتم بهم، فمن الله عليكم واستنقذكم من الكفر ومن الاستضعاف؛ فتبينوا إذاً ولا تحرموا عباد الله ما منّ به عليكم، قال سعيد بن جبير: معناه كنتم مستخفين من قومكم بإسلامكم، خائفين منهم على أنفسكم، فمنّ الله عليكم بإعزاز دينكم، وإظهار شريعتكم، فهم الآن كذلك، كل واحد منهم خائف من قومه، متربص أن يصل إليكم فلم يصلح إذا وصل أن تقتلوه حتى تتبينوا أمره [٦].



(٥) صحيح البخاري (٥/ ١٤٤) صحيح مسلم (١/ ٩٧) مسند أحمد ط الرسالة (٣٦/ ٧٣-٧٤)

(٦) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز (تفسير ابن عطية)(٢/ ٩٧)

والإثخان في قتل الكافرين المحاربين أمر عارض يهدف لكسر شوكة الكفر لئلا يطول الصراع فتقع صدامات أشدّ، لكن بعد ذلك تعود الأمة للأصل: " فإما منا بعد وإما فداءً حتى تضع الحرب أوزارها" وهدم متلكات الكفار وكذلك قتل الترس كلها أحكام غير أصلية وإنما هي استثنائية؛ لذات الغرض، والاستثناء يبقى دائماً في دائرة ضيقة محاطة بقواعد سدّ الذرائع؛ لئلا يخرج بها أهل الأهواء عن حدّها ولئلا تسخر لانتهاك حدود الله وحقوق العباد، والمقصود من هذا الاستطراد هو التأكيد على ضرورة التقيد بالغاية.



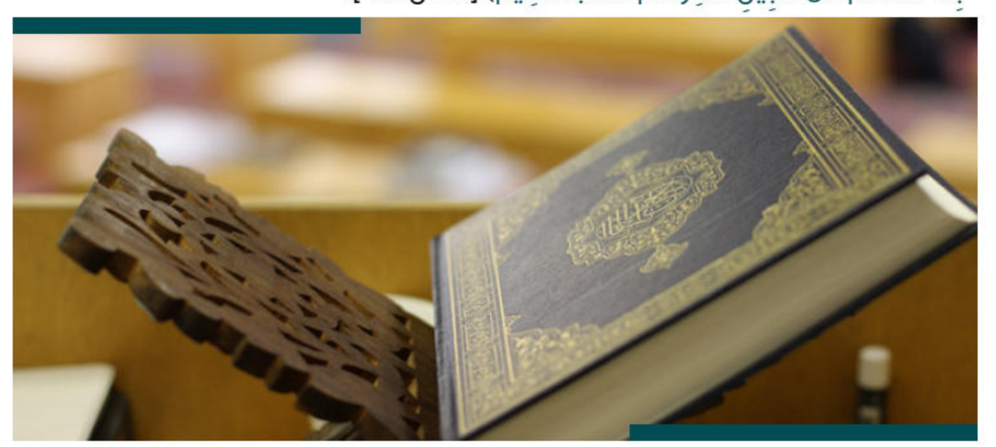
كما يترتب على ذلك ضرورة مراعاة حقوق الآدميين؛ انطلاقاً من شريعتنا الغراء، التي ما شرع الجهاد إلا من أجل تحقيق سيادتها وهيمنتها، فمحور مقاصد الشريعة هو حقوق الآدميين، والتي على رأسها حق الإنسان في أن يعرف ربه ويعبده، وحقه في الحياة؛ لذلك وجدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم يوصي الجيش الإسلاميّ الغازي، يوصيه وهو يودعه بهذه الوصية: «اغْزُوا بِاسْمِ اللَّهِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، قَاتِلُوا مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ اغْزُوا، وَلَا تَغُلُّوا وَلَا تَغْدِرُوا وَلَا تَمْثُلُوا وَلَا تَقْتُلُوا وَلِيدًا ... " وكان يقول لهم: "إِنَّ اللَّهَ لَمْ يُحِلَّ لَكُمْ أَنْ تَدْخُلُوا بُيُوتَ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلاَّ بِإِذْنٍ وَلاَ ضَرْبَ نِسَائِهِمْ وَلاَ أَكْلَ ثِمَارِهِمْ... "[(٧)] وكان أبو بكر يقول لجيوشه مثل هذا الكلام ويحذرهم من قتل الرهبان أهل الصوامع: "... وَإِنَّكُمْ سَتَجِدُونَ أَقْوَامًا قَدْ حَبَسُوا أَنْفُسَهُمْ فِي هَذِهِ الصَّوَامِعِ فَاتْرُكُوهُمْ وَمَا حَبَسُوا لَهُ أَنْفُسَهُمْ"[(٨)]

---

(٧) رواه أبو داود (٣٠٥٢)، والبيهقي في السنن(١٩١٩٨)، والصحيحة(٨٨٢)"حسن".

(٨) رواه البيهقي في السنن الكبرى (١٨٦١٤)

وأخيرا ضرورة الالتزام بأخلاق الجهاد الإسلاميّ، تلك التي عنى بها القلآن الكريم فوضع أصولها قبل أن تأتي السنة القولية والعملية لتفصل وتطبق، ومن هذه النماذج القرآنية المشرقة أن المسلمين إن كان بينهم وبين أمة من الأمم عهد وميثاق، وآنس المسلمون من معاهديهم خيانة فلا يحل لهم أن يبادئوهم بنكث العهد، بل عليهم أن يعلنوهم بانقضاء العهد الذي كان بينهم حتى يكون الفريقان مستويان في العلم بانتهاء العهد، وهذا السلوك تلقاه المسلمون أمرًا مباشرًا من القرآن، قال الله تعالى: (وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لاَ يُحِبُّ الخَائِنِينَ)[الأنفال : ٥٨] -أي: إن خفت من قوم بينك وبينهم عهد أن ينقضوا العهد، وآنست منهم شرًّا؛ فلا تبادر بنقض العهد، ولكن انبذ إليهم عهدهم، وأعلمهم بنهاية مدته؛ حتى تكون أنت وهم سواء في العلم بانقضاء العهد، وقد نهى الله المسلمين أن يتخذوا أيمانهم دَخَلاً بينهم؛ لئلا يكونوا قدوة للناس في نقض العهود، قال تعالى: (وَلاَتَتَّخِذُوا أَيْمَانَكُمْ دَخَلاً بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمُ بَعْدَ ثُبُوتِهَاوَتَذُوقُوا السُّوءَ بِمَا صَدَدتُّمْ عَن سَبِيلِ اللَّهِوَلَكُمْ عَذَابُ عَظِيمُ) [النحل : ٩٤].



وعندما عزم رسول الله صلى الله عليه وسلم على الانتقام المضاعف ممن مثلوا بجثة عمه حمزة رضي الله عنه نزل قول الله تعالى: {وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرُ لِلصَّابِرِينَ} [النحل: ١٢٦] ، وفي سياق تقرير حق المسلم في الردّ على العدوان نزلت الآيات لتحصر هذا الحقّ في دائرة العدل والإنصاف دون زيادة يمليها الغضب، ويندب للعفو والتسامح: " {وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ . وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةُ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ. وَلَمَنِ انْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ . إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابُ أَلِيمُ . وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ} [الشورى: ٣٩ - ٤٣]

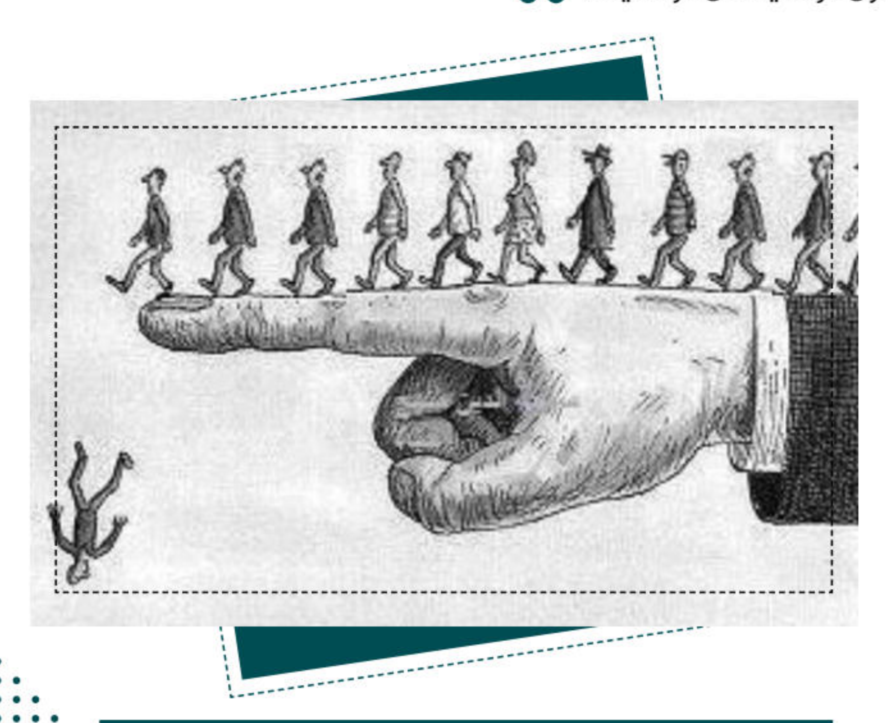


" ثقافة الطوارئ " .. لا تحفظ هوية أمة

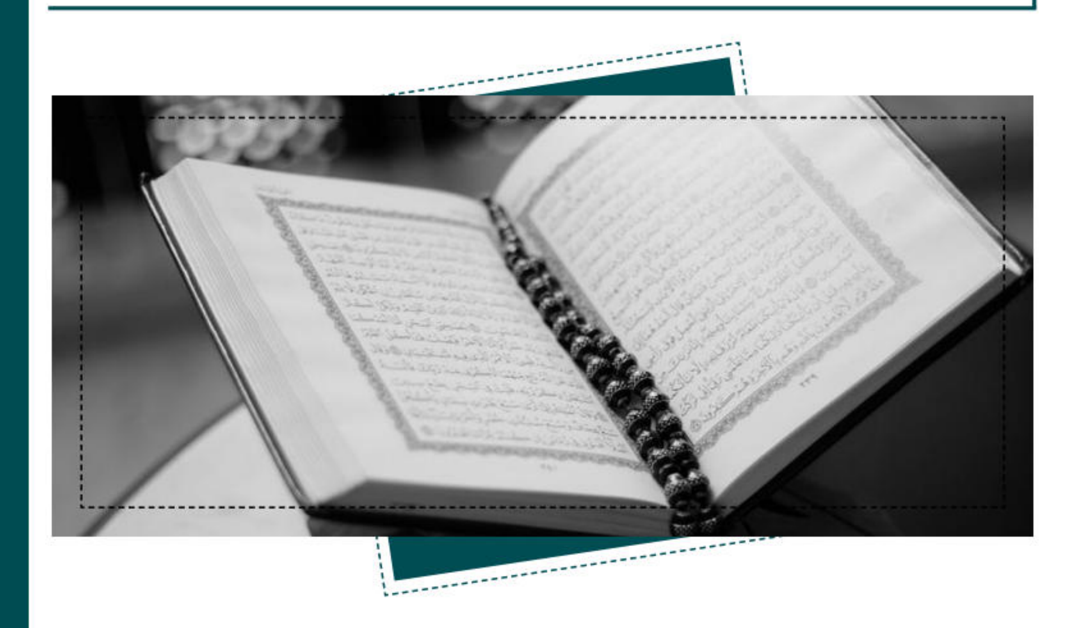
وليد الهويريني (فك الله أسره)

أصبحت عين المراقب لا تخطئ حركة متسارعة من الحراك على الصعيدين الثقافي والاجتماعي، والتي تسببت في حالات متفاوتة من التغيرات والتبدّلات التي طالت الكثير من الناس، وقد جُبل الإنسان على تسويغ أي تصرف أو موقف يبدر منه؛ فالإنسان بطبعه شديد الاعتداد برأيه وقناعاته، و"مطلق التغيير" ليس مذموماً بإطلاق.

فلو سلطنا عدسة التاريخ والرصد في سير الأئمة والعلماء والعظماء والساسة والعباقرة والأدباء لوجدنا من هذا الشيء الكثير، وعلى صعيد التصورات والمفاهيم التي يؤمن بها الإنسان يختلف تقييم المفكرين والعلماء بحسب خلفيّتهم العقدية والفكرية؛ فالثقافة الغربية المعاصرة لضعف أو **غياب شعاع الوحي الرباني في منظومتها الفكرية** تجعل "مطلق التغيير" قيمة يثنى عليها و يُحمد صاحبها، فخُواء القلب من العلم اليقيني يفضي لشعور متعاظم بأن "الثبات" على أي مبدأ يُعدّ أمراً مذموماً دائماً؛ فالمثقف الغربي يستحضر دائماً "النكبة الكبرى" في القرون الوسطى المظلمة فيما لو بقي ثابتاً على حاله، بل إنك تلحظ أن القيم الإنسانية المطلقة التي جاءت البشرية باحترامها "كالصدق" و"العدل" "وكرامة الإنسان" يتم دفنها وتهميشها في العقل الجمعي الغربي، فتصمّ الشعوب الغربية آذانها إذا تعلق الأمر بمصالح دولها الاستعمارية في العالم الإسلامي، ويبقى في تلك الشعوب قلة قليلة أهل عدل ووفاء، ولكن لم يسجل التاريخ الحديث حسب علمي حالة واحدة ارتفع فيها منسوب هذا الشعور الإنساني لدى تلك الشعوب لترفع هراوة ظلم أنظمتها عن "الآخر"، بينما أسقطت تلك الشعوب العديد من حكوماتها عندما تقلص مستوى الرفاهية لدى مواطنيها.



في العالم العربي - الذي يرزح منذ عقود عديدة تحت أغلال التبعية الفكرية والثقافية يحار المثقفون والفقهاء الغيارى في كيفية مجابهة مثل هذا الهدير المتدفق من التصورات والمفاهيم المنحرفة، فيلجؤون إلى خفض سقف خطابهم الدعوي والفكري لشعورهم بُغربة الكثير من التصورات والمفاهيم الشرعية لدى عموم الناس، وهذا ربما كان في كثير من الأحيان مقتضى "الفقه الرشيد" والحكمة الربانية (وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً)، ولكني أعتقد أن العديد من النخب الفكرية والشرعية بالغت في هذا الخط، حتى أدّى هذا الأمر لغياب المفاهيم والتصوّرات الشرعية لدى عموم الناس.



عندما اعترضت إحدى المثقفات العربيات على وصف شيخ لها وقد كشفت عن شعرها ونحرها - بأنها "عاصية"، فإن هذا ينبئ عن خلل خطير؛ فهي تعتبر ما هو معلوم حكمه من الدين بالضرورة محل الاستهجان، وقسْ على ذلك وصف غير المسلم "بالكفر"، والذي لا يقتضي كما هو معلوم بداهة لدى كل متخصص- استباحة دمائهم وأموالهم، بل إن الشريعة توعدت من اجترأ على معاهد أو ذمي بوعيد شديد، ولكن وجود طوائف غلت في استحلال دماء غير المسلمين كالمعاهدين والمستأمنين، وحرص الداعية على التلطف بالعبارة مع غير المسلم، والذي يمكن تفهمه في سياق الحوار مع غير المسلمين، إلاّ أن هذا لا يسوّغ تغييب "المصطلح الشرعي" عندما يكون الخطاب موجهاً لعموم المسلمين.

ولو أردنا القفز إلى قضايا الأمة الكبرى كحق الشعوب المسلمة المحتلة في مقاومة المحتل الذي كفلته شرائع السماء ودساتير الأرض، وفُطرت عليه المخلوقات لوجدنا أن ثمة قطاعاً عريضاً من الإعلاميين والمفكرين والفقهاء من أصبح ينازع في هذا "الحق الطبيعي"، ويضع لذلك احترازات وقيود محصلتها تعطيله بالكلية، ولئن كنا كمراقبين قد نلتمس العذر لبعضهم عندما اختلطت صور المقاومة الشريفة والجهاد المقدس بصور أخرى من الإرهاب والفتك بالدماء المعصومة في بعض الأماكن، إلاّ أن قضية جوهرية في ضمير الأمة كقضية "فلسطين"، وعدو قبيح الوجه لم تفلح أدوات التجميل التغريبية في تطبيعه كإسرائيل، لم تسلم من صوت إعلامي وفكري أصبح يلوم الفلسطينيين في استراتيجية مقاومتهم أو طبيعة تحالفاتهم أو موقفهم من أذناب المحتل أكثر من لومهم لأنفسهم وخذلانهم لإخوانهم وتسويغهم لهذا الخذلان.



ليس أضر على أمة الإسلام من شيء كضرر غياب المفاهيم والتصورات المنبثقة من كتاب ربها وسنة نبيها عليه الصلاة والسلام؛ فالخسائر المادية والبشرية مهما كانت جسامتها يمكن تعويضها، ولكن غياب التصورات والمفاهيم الشرعية يفضي إلى غياب المحركات الفاعلة في مسيرة النهضة والإصلاح.

نعيد نشر هذا المقال للشيخ فك الله أسره، وقد نشر المقال بموقع الإسلام اليوم على هذا الرابط.



حركة الشباب الصومالية

..

من المقاومة الشعبية إلى التنظيم المشتت

معتز زاهر

في يناير ١٩٩١ سقط نظام سياد بري الشيوعي، وشهدت السنوات التالية حروبًا أهلية وانتشرت ظاهرة سيطرة جنرالات الحرب على معظم أراضي الصومال، وأمام تلك الفوضى، تمكنت تمكنت حركة الاتحاد الإسلامية من البروز. وفي عام ١٩٩٢ إلى ١٩٩٥ ، نشرت أمريكا قواتها مع قوات دولية أخرى بزعم "وقف إطلاق النار في مقديشو"، و"مواكبة قوافل الإمدادات الإنسانية" و"توفير بيئة آمنة في الصومال". وغير ذلك من الأهداف المعلنة التي تعني في حقيقتها الحفاظ على المصالح الأمريكية والغربية في القرن الأفريقي.

وبدء صوماليين القتال ضد القوات الأمريكية، وانسحبت وقوات الأمم المتحدة من الصومال في العام ١٩٩٥.

أما حركة الشباب الصومالية فيعود تأسيسها إلى العام ٢٠٠٤، غير أن كثافة نشاطها وتداولها اسمها في الإعلام يعود إلى العام ٢٠٠٧، ظلت الحركة توصف في البداية بأنها الجناح العسكري للمحاكم الإسلامية خاصة في فترة استيلاء المحاكم على أكثرية أراضي الجنوب الصومالي في النصف الثاني من العام ٢٠٠٦. كانت هزيمة المحاكم أمام مسلحي الحكومة الصومالية المؤقتة المدعومة من طرف الجيش الإثيوبي وانسحاب قيادتها خارج الصومال، وتحالفها مع المعارضة الصومالية في مؤتمر أسمرا المنعقد في سبتمبر ٢٠٠٧، من أكبر الأسباب وراء انشقاق حركة الشباب الصومالية عن المحاكم متهمة إياها بالتحالف مع العلمانيين والتخلي عن الجهاد في سبيل الله[1].

وكانت قد تشكلت حركة الشباب من حوالى ٣٠ شخصاً، من بينهم مقاتلون شاركوا في الجهاد الأفغاني وأعضاء سابقون في حركة الاتحاد الإسلامية وأعضاء بتنظيم القاعدة في منطقة شرق أفريقيا.

في ٢٠٠٧م اجتاح الجيش الإثيوبي الصومال بدعم أمريكي، وأطاح باتحاد المحاكم والشباب عن الحكم واحتل العاصمة، وفي يناير التالي دخلت أيضاً قوات الاتحاد الأفريقي المدعومة أمريكيا بحجة حفظ السلام في مقديشيو.

ركّزت حركة الشباب عام ٢٠٠٧، على تعزيز هيكلها التنظيمي، وإعادة تسليح صفوفها المنتشرة في جنوب الصومال، كذلك رسّخت الشباب وجودها على شبكة الإنترنت موجِّهة وعزّزت إمكانياتها في التجنيد وتحصيل الدعم المالي.

وفي أغسطس ٢٠٠٨ سقطت مدينة كيسمايو في يد الشباب وعلى مدى عدة أشهر تالية، أحرزت الشباب تقدّمًا باتجاه الشمال، محقّقة انتصارات على القوات الإثيوبية في المناطق الساحلية، وفي أثناء تلك الاشتباكات العسكرية،

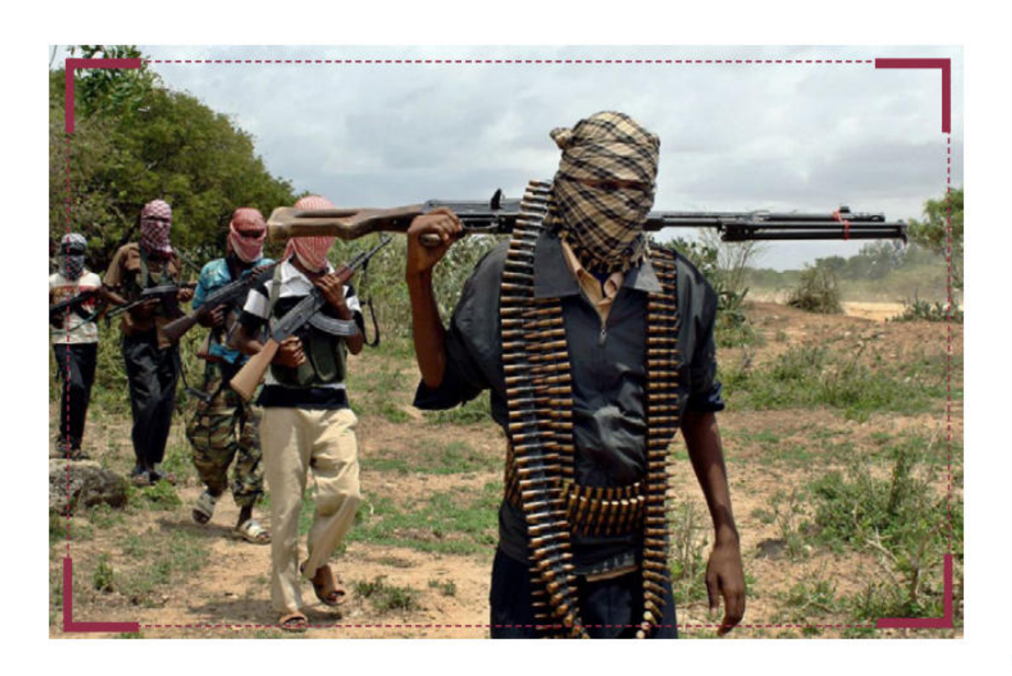
(١) حركة الشباب المجاهدين، الجزيرة نت، ٣ أبريل ٢٠١٥م.

اعتمدت الشباب على استراتيجية العصابات مستعينة بموارد عسكرية وسياسية بهدف تعبئة الشعب الصومالي وتنفيذ استراتيجية الكر والفر، وتقويض عزيمة الحكومة على القتال، وفي نوفمبر ٢٠٠٨ ، سقطت مدينة مركا التي تبعد ٦٠ كلم فقط جنوب مقديشو، في أيدي مقاتلي الشباب.

وانسحبت القوات الإثيوبية في عام ٢٠٠٩ واتّسع نطاق نفوذ حركة الشباب وسيطرت على عدة بلدات وموانٍ، وبحسب بعض التقديرات تمكنت الشباب من تحقيق إيرادات بقيمة مليون دولار على الأقل في اليوم الواحد.

ثم بدأت الحركة ترتكب عدة أخطاء أسهمت في إضعافها، ونلخصها فيما يلي:

١ شنّت غارات على دولة كينيا بسبب دعمها لحكومة الصومال، وقد استجابت الحركة بذلك إلى استفزازها لتوسيع عملياتها خارج الصومال والظهور في صورة التنظيم ذي الأهداف الإقليمية، وأكد ذلك تكرار قيادات الحركة لرغبتهم في تأسيس دولة إسلامية في الصومال وما جاورها من بلاد، وهو الأمر الذي لا يتناسب مع الزمان أو المكان أو الحال.



٢- صرح قائد الحركة بنيته الاندماج مع تنظيم القاعدة دون أي مبرر، مما نقل الحركة من المقاومة الشعبية إلى التابعية لجماعة خاصة تستهدف أمريكا والغرب، الأمر الذي استعدى الغرب أكثر، وجعل الحركة في نظر الشعب تابعة لتنظيم خارجي.

٣- فشلت حركة الشباب في ترسيخ سيطرتها على الأقاليم التي كانت تحت نفوذها، نتيجة لجوئها إلى تجنيد أعضاء جدد لم يتمكنوا دومًا من الالتزام بأهدافها طويلة الأمد، ونتيجة السيطرة على مناطق واسعة على حساب ضبط كل منطقة وتأمينها والعمل على تقويتها.

٤- نشأت الخلافات والانشقاقات بين قادة الحركة، والاتهامات بالعمالة وظهرت هذه الخلافات إلى العلن.

٥- تورطت في نزاعات متكرّرة مع الجماعات المسلّحة المحلية الأخرى، بدلا من التآلف معهم والتعاون.



٦- أصدرت بيانًا دعت فيه الجهاديين إلى تنفيذ هجوم على سفارات أوغندا وبوروندي في مختلف بلدان العالم لمشاركتهما في قوات بعثة الاتحاد الإفريقي في الصومال.

٧- في ١١ نوفمبر ٢٠١١ حظرت الحركة نشاطات عدداً من المنظمات الإنسانية الغربية، واتهمتها بسوء توزيع المساعدات والترويج للعلمانية والتنصير وكان ذلك في موسم الجفاف فحدثت مجاعة شديدة قضت على عشرات الآلاف من الصوماليين.

٨ أساءت الحركة التعامل مع ما يعرفون بـ"المهاجرين" ولم تستوعب ثقافاتهم المختلفة وفرضت قيوداً وخناقاً على نسائهم، وفي المقابل أعطت صلاحيات أكثر للصوماليات، واحتجزت بعض أعضائها لمدة طويلة دون محاكمة عادلة[٢].

نتيجة لتلك الأخطاء شرعت الحركة في التقهقر بعد النفوذ الواسع السابق، وتراجعت شعبيتها بعد أن كانت لها شعبية جيدة.

في الفـترة الممـتدة بين فـبراير ومايو ٢٠١١ شنّـت ر بدعم كيني وإثيوبي سلسلة هجمات استهدفت معاقل الحركة، مما أضعفها، وفي أغسطس ٢٠١١ أعلنت انسحابها من العاصمة، وفي ١٤ أكتوبر شنت كينيا حرباً على الحركة بالجنوب مما أضعفها أكثر وجعلها تعلن الحرب على كينيا باستهدافها بعدة عمليات في أراضيها لاحتلالها الصومال، وفي فبراير ٢٠١٢ أعلنت الحركة انضمامها إلى تنظيم القاعدة رسمياً. وفي ٢٨ سبتمبر من العام نفسه طُردت الحركة من معقلها الأخير في كيسمايو، وكانت قد أصدرت فيلماً وثائقياً عن سيطرتها وتحكيمها للشريعة الإسلامية في بعض الأقاليم كإقليم بيداوا قبل أن تغادرها وتترك السيطرة عليها[٣].



(٢) لقاء للصحفي بلال عبد الكريم مع زوجين عضوين أوروبيين سابقين بالحركة، قناة أو جي إن، يوتيوب، على هذا الرابط.

(٣) إصدار "تحت ظلال الشريعة"، مؤسسة الكتائب الذراع الإعلامية لحركة الشباب، على هذا الرابط.

بدأت الحركة بعد هذا التراجع عمليات مسلحة عشوائية دون السيطرة على الأرض، فنفذت اغتيالات وتفجيرات في كل من الصومال وأثيوبيا وكينيا وأوغندا وغيرها من الدول التي تحاربها، سقط في هذه التفجيرات كثير من المدنيين لإجبار هذه الدول -في زعم الحركة- على الانسحاب من الصومال وقوات بعثة الاتحاد الأفريقية التابعة لأمريكا وهو الأمر الذي أثبت فشله، فهذه الدول المستبدة لا تبالي بمقتل شعوبها، بجانب هذا سيطرت الحركة على قليل من الأراضي. وأصبحت العمليات العشوائية والسيطرة المحدودة هي سمة حركة الشباب من حينها وحتى الآن.



لا شك أن تدخل القوات الأمريكية العسكرية وعمليات الاغتيال التي قامت بها ودعمها لقوات بعثة الاتحاد الأفريقي والجيش الصومالي في محاربتهم لها، كان له أثر بالغ في إضعاف الحركة، لكن الأثر الأكبر كان نابعاً من الحركة نفسها ومن أخطائها الذاتية، وهي نفس الأخطاء تقريبا التي ارتُكبت في ساحات أخرى.

لكن وكما تقول دراسة لمؤسسة راند للأبحاث: "صحيح أنّ القوات الحليفة أحرزت تقدّمًا في إجبار حركة الشباب على الانسحاب من المناطق التي كانت تحت سيطرتها، إلا أن المجموعة لا تزال خطيرة ونهجها يبقى فتاكًا"[٤].

(٤) سيث ج. جونز - آندرو م. ليبمان، استراتيجية مكافحة الإرهاب والتمرد في الصومال، ص ٢٩ ، مؤسسة راند، ٢٠١٦ م.



المشرف العام
محمد إلهامي

مدير التحرير
معتـز زاهــر